وفـادة

الى المنطقة المحررة

يونان هرمز

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق

ص.ب رقم: ١

www.araspublisher.com

وفادة

الى المنطقة المحررة

يونان هرمز

اسم الكتاب: وفادة الى المنطقة المحررة – رواية
تأليف: يونان هرمز
من منشورات ئاراس رقم: ١٣٢
التصميم والإخراج الفني: عبدالرزاق عبدالله
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية – اربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٢/١٨١

مقدمة المؤلف

تمر هذا الصيف أربعون سنة على أحداث هذه الرواية، تتبعت وقائعها وانا صبي في مرحلة الدراسة المتوسطة. مضت السنون تتبعها السنون، وأنا لا أعرف أن الخوري الذي رافق بطلها في سياق هذه الرواية، المطران توما ريس، قام في حينه بتدوين ما جرى لهما وتوثيقه في دفتر مذكرات صغير عثرت عليه في مكتبته العامرة في مدينة فارمنگتون هلز إحدى ضواحي ديترويت في امريكا.

أثار الدفتر إنتباهي، وظهر لي غلافه مألوفاً، فهو من الدفاتر التي كنا نبتاعها من دكاكين الورّاقين لأداء الفروض المدرسية، تصدره شعار الجمهورية وتحته عبارة «الجمهورية العراقية» تليها عبارة «وزارة المعارف»، وعلى الغلاف الخارجي الأخير، جدول الضرب الذي كنا نحفظه غيباً ونحن صغار، يذّيله اسم الشركتين اللتين أنتجتا الدفتر وهما «المتعهدان مطبعة ناجي ومطبعة الهلال – بغداد»!

وانبهرت عيناي كطفل غرّ تقع بيده لعبة جديدة!

قلت: ما هذا؟

قال: لا شيء، بعض يومياتي القديمة!

عرفت أن عليّ أن اتداول الدفتر برفق، كأي مخطوطة قديمة ثمينة لها حرمتها، فورقها فقد مرونته يتكسر بسهولة والمداد عليها يتلاشى بيسر. وأيقنت أنه فيما يخص الحركة الكُردية هذه أقدم مخطوطة مذكرات وصلتنا تغطي الأشهر الأولى لثورة أيلول الكبرى، على مدى علمي انا المتتبع الجاد.

مسحت عنها غبار الزمن، وحال تصحفي أوراقها السمراء وقراءتي بعض نصوصها القصيرة ، قفزت الى ذهني فكرة هذه الرواية! ثم إلتفت اليه.

قلت: مولاي، أنت جالس على منجم ذهب، لماذا لا تستغله؟

قال: إنها ذكريات لأيام مّرة من حياتي لا أريد العودة إليها! فأنا رجل كبير السن منهمك بكتابي العتيد وخاتمة أعمالي الفكرية عن الحوار الديني بين الاسلام والمسيحية.

قلت: إذن إسمح لي أن أستخلص من هذا التبر ذهباً خالصاً فأصوغ منه رواية. أرى فيها ما يكفي من مادة جيدة لها.

قال: إنها ملاحظات قصيرة لا تفي ولا تصلح لما تظنه!

قلت: دعني أجرب حظي!

قال: لك ما أردت، إذهب، وهبتها لك!

وحملتها الى بيتي وأنا على أحر من الجمر، لا أعرف متى سأصل لأبدأ بقراءتها، فقرأتها مثنى وثلاث ورباع، وجربت حظي، وقلت في نفسي: إن لم تكن روايتي هذه ممتعة ومثيرة بقدر روايات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وغيرهما من كتاب الرواية المعاصرين بسبب خلوها من عناصر الاثارة كالمرأة والحب والإنتحار والمسدسات، فلأجل توثيق حقبة مهمة من تاريخ الثورة الكردية بأسلوب أدبي: إنطلاقتها، أشهرها التسعة الأولى، بداية تشكيل قوات الپيشمەرگه والهيزات، فهي تسلط ما فيه الكفاية من أضواء كاشفة على ما جرى آنذاك. أربعون يوماً يرافق القاريء فيها مطران زاخو وسكرتيره الخوري في رحلة عذابهما من زاخو الى معسكر الجيش في باتوفا، الى قرى هجرها أهلوها الى قعر الوديان العميقة يحتمون من قصف الطائرات وهجوم الجيش والمرتزقة، ومعارك ئاڤگەنى وخيزاڤاك ومنها الى ئاڤل وپيربلا وبانكه في گلي پس آغا الغزير المياه الوارف الظلال، وئاليشك وگەرين وسولێ ونزولێ في گلي كەشان المكسو بالغابات الكثيفة الموحشة، وهروري وچەلكێ وشودن في المضيق الذي نخره الخابور بين الگولي وبەرواري بالا، وشلينێ وشيلانێ وبيزهي وصوريا وبيخبارێ وليڤۆ وبرسڤێ، ومناطق أخرى وقرى لا نعرف عنها الكثير حتى يومنا هذا!

كان بوسعي أن أحيد عن مضمونها التاريخي فأدخل عليها عناصر الدهشة والإثارة المارة الذكر والتي قلما تخلو منها رواية معاصرة، لكن إلتزامي الأمانة الوثائقية لم يطاوعني فعزّ عليّ خيانته، فهي أولاً وأخيراً جزء من تراثنا

الثوري وأدبه.

وأشهد أني إذ إنتهيت من كتابتها عنّت لي فكرة الرد على بعضهم المتسائل: أهي رواية تاريخية أم قصة أدبية من نسج خياله، أم ماذا؟

قلت: أما قرأتم لجرجي زيدان بعض رواياته؟ كيف هو يستغل حدث التاريخ فيغزل منه وينسج حوله أو يدمج فيه قصة غرامية تشوق القاريء على إتمامها، حتى أنك لتقرأ فترى هؤلاء الذين قضوا نحبهم وطوتهم الأيام، أحياء متكلمين؟ وحاشاي أن أقارن نفسي بجرجي زيدان العظيم الذي أعيانا أسلوبه وأدبه نحن المقلدين والمتشبهين وهو الذي إقتعد غاربهما، فعلى مغزله غزلنا وعلى نوله حكنا ثوب روايتنا، فهي حدث حقيقي وأشخاصها أناس حقيقيون ممن يأكلون ويمشون في الأسواق، إلا نادراً جئت بهم من بين خلصائي وخلطائي، بعضهم ما زالوا أحياء يرزقون، ومسرحها معروف المعالم. وإني أعرب لهؤلاء المتسائلين عن شديد أسفي، فأنا لم أكن أملك آلة ڤيديو لأنقل لهم أحداثها صورة وصوتاً مذيلة بيوم تسجيلها ووقته في أسفل الشاشة! وأنما تخيلت مشاهدها وحواراتها وإختلقت بعضها الآخر بقلمي معتمداً على ما أتحفني به الخوري من فضله مكتوباً أو مسموعاً وعلى درايتي بالمنطقة كپيشمەرگه شارك في ثورة أيلول، لنسج لحمتها بسداها. فيقرؤها الأديب منهم فيطرب وغير الأديب فيعجب.

بعد أن فرغت من كتابتها، كان بودي السفر من ديترويت الى زاخو فباتوفا لأقتفي آثار المطران والخوري في سفرهما المضني المحفوف بالأخطار، وأحقق في القرى والأماكن التي مكثا فيها، لكن بعضهم أشار الي بأن المنطقة ما زالت غير أمينة وخصوصاً گلي پس آغا وگلي كەشان بسبب الألغام التي زرعت فيها في مختلف العهود، فمن سيطرة الجيش العراقي عليها بعد إنهيار ثورة أيلول الى عهد ثورة گولان، الى تسلل حزب العمال الكردستاني إليها، وخروقات الجيش التركي في مناطقها الحدودية، فهي موبوءة بالألغام وستبقى لفترة طويلة قادمة يعاني فيها الأهلون من أخطارها.

قليلون هم الذين ما زالوا على قيد الحياة ممن شاركوا منذ البدء في ثورة أيلول، إذ نقرأ كل يوم في صحفنا أخبار وفيات أولئك الرواد الميامين الأوائل

الذين وضعوا دماءهم في أكفهم وإقتحموا الدبابات بصدورهم العارية دفاعاً عن أرض كردستان نراهم يرحلون عنا بصمت، كأنهم يريدون الإختفاء عنا، وسيتضاءل عددنا بإطراد بمرور السنين حتى لا يبقى واحد منا نحن الذين كان لنا شرف المساهمة فيها، إن لم يكن في إنطلاقتها الأولى، ففي لحاقنا بها وهي في عزها وشرخ شبابها.

أولئك الذين سبقونا لم يموتوا، فالپيشمەرگه الحقيقيون لا يموتون وإنما يتوارون عن الأنظار، تماماً كما توارى عنا الپيشمەرگه الأول وخاتمة شهدائها: البارزاني!

وماذا بلغنا من تراث هؤلاء؟

لم يَبلغنا مدوناً إلا النزر اليسير مبعثراً هاهنا وهاهنا، وفيما عداه تراث محكي تتناقله الالسنة وتتداوله مجالس الپيشمەرگه القدماء.

سببه؟

أولئك القليلون الأحياء ساكتون سكوت أبي الهول كأن السنتهم خرست وأفواههم سدت وأقلامهم جف مدادها لا أرى أحدهم يرفع صوته أو يغمس قلمه في دواة ليكتب أو يقول شيئاً عن أهم حدث في تاريخ الكرد المعاصر وهم الذين صنعوه وسطروا صفحاته المجيدة بدمائهم!

أيها الرواد الأوائل الأحياء، يا معشر المتواضعين الذين عملتم بصمت، ليس من أجلكم، بل من أجلنا نحن ومن أجل الذين سيخلفوننا، قولوا بل أكتبوا ما تسعفكم به ذاكرتكم!

يونان هرمز

نوروز ٢٠٠٢

1

قبل أيلول وبعده

الجمعة ٢٥ أيار ١٩٦٢

إعتاد المطران وسكرتيره الخوري على مناقشة مواضيع الساعة على مائدة الفطور، فهي فرصتهما للإلتقاء وتبادل الآراء حول ما يجري في المدينة قبل البدء بعملهما اليومي. منذ أيام إختارا أن يتدارسا أسباب ما يجري قاب قوسين أو أدنى منهما في ريف زاخو من أعمال عنف ونهب وسلب، فبعد أن أولع سيگارته الأولى إستهل المطران الحديث بقوله:

– أنا أرى أن السبب الرئيسي لما يجري هو عدم شفافية الدولة تجاه الكُرد والأقليات.

– سيدنا، ماذا تعني وماعسى أن تفعله الدولة تجاههم؟

– الدولة تعاملهم كأنهم غرباء دون أن تقيم لخصوصياتهم الأثنية والقومية وزناً وإعتباراً. فحيث نجح الإسلام على مر القرون في إختراق هذه الجبال، فشل التعريب على قدماتها، لكن السنوات الأربعين التي أعقبت قيام الدولة العراقية منحته زخماً جديداً فكاد أن يقضي على الملامح الكردية لمدينة زاخو فهو اليوم على أشده تهب رياحه من الموصل. كل جديد فيه تتسرب عدواه الى زاخو في غضون أيام، المقاهي والمطاعم تقرأ رقعها بالعربية، المقهى الوحيد الذي يتحدى بصمت أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش هو مقهى فەرمان بجانب جسر الفاروق حيث يتزاحم الزبائن المسنون صيفاً في الهواء الطلق يقضون أوقاتهم مساء يلعبون

الطاولة والدومينا مشنفين آذانهم بأغاني حسن جزيري ومحمد عارف وكاويس آغا ومريم خان.

توقف المطران برهة ليجرع قليلاً من الشاي ثم واصل:

– أجل، هذا السطو الحضاري يغزو زاخو من كراج الميدان. المسافرون إليها من الموصل يتكلمون العربية حتى بعد إجتيازهم مضيق گلي سپي وإشرافهم المفاجيء على الأحياء الجنوبية للمدينة، الأفندية من هؤلاء بقمصانهم البيضاء وربطات أعناقهم الملونة القادمة موديلاتها من الموصل طبعاً، بلغ بهم مرض إنفصام الشخصية القومية حداً أنهم أصبحوا كالبطارية التي إستنزفت طاقتها يتقمصون شخصية قومية هي غير شخصيتهم فيستنكفون التكلم مع من يرتدي الزي الكُردي لئلا يراهم أحد ويعرف أنهم كُرد! الطبقة المثقفة عندما تلتقي بمناسبة أو بغيرها تتناقش بالعربية متباهين وكأنهم لا يعرفون الكردية التي يعتبرونها لغة الفلاحين ورعاع الشعب، تماماً كما كانت اللاتينية في أوروبا في القرون الوسطى.

– سيدنا، هذا شأن الناس لا أرى كيف تقحم الدولة فيه؟

– أبونا، ألا نقول الناس على دين ملوكهم! نحن على حضارة ساستنا، إنها سياسة الدولة، وموظفو دوائرها جلّهم عرب ولا يتكلمون إلا العربية. بعد الدوام ترى جوقات المعلمين يتنزهون على الطرق المؤدية الى بيدار أو كيستا بمحاذاة مشروع حازم بك الإروائي، يمشون الهوينا وهم في طريقهم الى جسر دلال الأثري يتمازحون بالعربية.

سحب نفساً عميقاً من سيگارته ثم أردف متمماً حديثه:

– طلبة المدارس منذ الصفوف الأولى لا يتعلمون لغة الام، إنهم لا يتعلمون غير العربية، يقرأون «بلوط»، «ناقوط»، «طريق» و«قفز الولد من فوق البرميل» و«انف الفيل» بأسلوب محفوظاتي ترافقه جرسية غريبة بينما أناملهم الصغيرة الضعيفة غالباً ما تشير الى الكلمة السابقة واللاحقة لما يقرأون، وهم لايعرفون أن «بلوط، ناقوط، طريق»، هذه الكلمات الصعبة اللعينة إنما أختيرت لتعريبهم ولكي يتعلموا طريقة كتابة حرف الطاء إذا

تقدم أو توسط أو تأخر في الكلمة العربية، و«أنف الفيل» لكي يتعلموا حرف الفاء وهلمّ جراً.

ماذا يفهم الصبي الكُردي من «بلوط، ناقوط، طريق»؟ لا شيء!! ما هذه الكلمات الصعبة العجيبة الغريبة التي لا يفهم معناها؟ ولكن حلم والديه هو أن يصبح إبنهم «بلبلاً» بالعربية لكي يتوظف في الموصل أو بغداد، وإذا إستمر الوضع على هذا المنوال لن يبقى شيء إسمه كُردي في زاخو قريباً.

قاطعه الخوري وهو يهز رأسه متفقاً معه مضيفاً:

– سيدنا، هذا الذي تقوله له نصيب وافر من الصحة، ولكن المشكلة أكبر من التعريب، إنها مشكلة لجوء كل الأطراف الى القوة لحل مشكلة سياسية، أنا لا أرى نضجاً سياسياً تتحلى به هذه الأطراف بل أرى سوءً في الإدارة. همهم الكبير هو إرتياد النادي الوحيد الكائن على الخابور يقضون فيه ساعات المساء الرتيبة بشرب العرق وبيرة فريدة. وقبل أن ينهالوا على التكة والكباب والتشريب ترتفع صيحاتهم وعربداتهم وفي الأيام التي يحضر فيها القائمقام أو معاون شرطة القضاء الى النادي ينصرف هؤلاء الى التملق والتزلف لمن بيده زمام الأمور. هؤلاء هم الذين يتحكمون بمصائر الناس، فماذا تتوقع؟ كيف يحصل الكُرد على حقوقهم القومية في الإدارة الذاتية، والذين بيدهم مقاليد الأمور والذين يرفعون التقارير هذه عقليتهم وتصرفاتهم؟

إعترضه المطران وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً:

– أنت لست تعالج المشكلة من أساسها، أنا معك فيما يخص النضج السياسي، لكن الإشكال يكمن في سياسة الدولة وليس في التصرفات الشخصية لموظفيها فهذه مسألة أخلاق وتربية.

إلتفت الخوري نحو المطبخ يطلب من الخادم سطيفو مزيداً من الشاي ثم استرسل وهو يجر الحسرات:

– في مجمع القشلة حيث القائمقامية ومعاونية الشرطة ودائرة الأمن كل شيء بالعربية، المكاتبات والمراسلات حتى كتبة العرائض والفراشين

والكناسين عليهم أن يتكلموها ويحاولوا تقليد رؤسائهم فهي مودة جديدة، والذين لايعرفون العربية يتوجب عليهم الإستعانة بمترجم أو أحد المتنفذين ليروي قصتهم في دائرة الحكومة. دائرة ضابط التجنيد أقسى الدوائر واوحشها في المدينة بإستثناء معاونية الشرطة أو دائرة الأمن، فهذه لاتختلف عن دوائر الجندرمة التركية. أما المستشفى الجمهوري والمستوصفات وغيرها من دوائر الخدمة العامة كدائرة مأمور النفوس فكلها معربة لايتكلم فيها الكردية الا الفقراء المراجعون فيما بينهم. وسجن زاخو الرهيب الذي تطل نوافذه الصغيرة على نهر الخابور مليء بأعضاء البارتي وانصاره الى جانب المجرمين الإعتياديين وهم محشورون فيه حشراً كالبهائم ليس فيه موطيء قدم، وبين الحين والحين يرسل الفائض منهم الى سجن الموصل المركزي، ويتعرض فيه البارتيون خصوصاً الى الضرب والجلد لإنتزاع الإعترافات.

– وماذا عن الجيش؟ ألا تخصه بشيء؟

– سيدنا، إنها قصة طويلة، فاللواء الذي تنتشر وحدات فوجه الأول بين المدينة وجبل بيخير مشرف على زاخو بينما فوجاه الآخران يقبعان في ريف القضاء، الثاني في باتوفا والثالث في قرية ئاڤگەنى لا يختلف عن جيش إحتلال. وإمعانا في السيطرة على الطريق الرئيسي أقام الفوج الأول نقطة سيطرة الى جانب نقطة تفتيش الگمارك الكائنة في محلة گوندك على الطريق المؤدية الى الموصل لمراقبة من يدخل ومن يخرج من المدينة ويعاملونهم بخشونه كأي جيش أجنبي ولا ينظرون إليهم كمواطنين، وجنود هذا المعسكر ينزلون الى سوق المدينة للتبضع وشراء العرق في محلة النصارى واذا ما تشاجروا مع أحد يتألبون عليه ظالماً أو مظلوماً، كأنه عدوهم المشترك.

تناول جرعة من الشاي أعقبها بأخرى من سيگارته مردفاً:

– سيدنا أنا أعرَفُ منك بهذه المدينة، ففي زاخو سوق قديم مظلم يسميه العامة «سيكا تاريك» (السوق المظلم) يتكون من شارع طويل يبدأ بقصر حازم بك وينتهي بقشلة زاخو، على جانبيه حوانيت البقالين والعطارين

وباعة الأقمشة والحاجات المنزلية ومطاعم الكباب، ويشقه عند الوسط سوق آخر من الجنوب الى الشمال ويُطلق على نقطة إلتقاء السوقين «چار سوك» (الأسواق الأربعة). وينتهي هذا الأخير جنوباً بالخابور وشمالاً بمخزن شاهيني كرو. وإذا إتجهت نحو كيستا فعليك أن تجتاز جسر السعدون أو كما يسميه العامة «پرامەزن» أي (الجسر الكبير) الذي يقع في نهايته من الجانب الأيمن جامع حجي ابراهيم. فبينما أنت في هذه الأسواق والأزقة يعترضك الإنضباط العسكري ومفارزه تتألف من جنديين أو ثلاثة يحملون الرشاشات وبأيديهم الهراوات ويحققون معك كأنك أجنبي في بلد محتل. وعن ظلم هؤلاء قال لي شاهد عيان أنه كان يوماً في السوق فإذا بطالب ثانوية قد لف دفتره ووضعه في جيبه الخلفي وأسدل عليه قميصه، فاعترضه هؤلاء وظنوا أنه يحمل سلاحاً أخفاه تحت ملابسه، فانهالوا عليه بالهراوات ضرباً حتى فقد وعيه قبل أن يكتشفوا أن سلاحه كان دفتره المدرسي!

طرق الباب جميل كاتب القائمقام واعتذر لما وجد الرجلين قد إحتدما في نقاش سياسي على غير عادتهما، بينما تخيم فوقهما غمامة كثيفة من دخان سكائرهما. فدعاه المطران الى مشاركتهما وشرح له ما فاته من النقاش حول التعريب وإستشراء العنف. فبدأ جميل يشرح لهما أوضاع زاخو:

– أنتما حديثا عهدٍ في هذه المدينة، فزاخو، بإستثناء كركوك، أكثر مدن كُردستان العراق تجانساً وتمازجاً بين الأديان والأعراق، وهذا التجانس حصل منذ أن كانت زاخو قرية صغيرة بُنيت على جزيرة تحيط بها من جهاتها الأربع مياه نهر الخابور التي طالما هددتها بالفيضان أيام الربيع، وشيدت على أطرافها قرى أخرى لمجموعات هاجرت من الريف بمرور الزمن وقيام حركة التجارة فيها، وبإزدياد الهجرة إليها تلاصقت هذه المجموعة من القرى لتشكّل مدينة صغيرة في مطلع القرن الماضي، ويعود سبب قيام التجارة في زاخو الى حركة الأكلاك النهرية التي كانت تنطلق منها في الربيع عند إرتفاع منسوب النهر محملة بالحبوب والجلود والأخشاب والعفص والفحم والصوف الى الموصل شأنها شأن دياربكر

وجزيرة والمدن الأخرى الواقعة على دجلة، قبل أن يشق الإنگليز الطرق ويأتوا بالسيارات الى المنطقة.

قاطعه الخوري مبتسماً:

– أبا أنور، هذه المعلومات تاريخية وإقتصادية وإجتماعية قيمة من أين إستقيتها؟

– من المرحوم والدي ومن المسنين، أبونا.

إسترسل أبو أنور:

– حتى قبل سنوات قليلة من إنطلاقة الثورة الكردية كانت في المدينة محلة كاملة لليهود وأخرى للنصارى من الكلدان والسريان وثالثة للأرمن وينتشر في أطراف ريفها الشمالية والغربية ما لا يقل عن ثلاثين قرية مسيحية عامرة، بعض سكانها أصلاء والبعض الآخر مهاجرون من كردستان تركيا ليشملهم آل شمدين آغا بعطفهم وحمايتهم من المذابح المروعة التي جرت في مناطق سيرت وسلوپي وجزيرة، وفي المدينة نفسها كرسي مطران زاخو الذي يمتد نفوذه على ولايتي شەرنەخ وهەكارى التركيتين شمالاً ومناطق دهوك جنوباً ويعد من وجهاء المدينة. نديم الأغوات وأشراف البلد ومستشار أجهزة الحكومة فيها.

قدم له الخادم قدحاً من الشاي، وبينما يرشف جميل جرعته الأولى، سأله الخوري:

– ماذا تعني بهذه المقدمة التاريخية، يا أبا أنور؟

– أبونا، دعني أكمل ما بدأته:

– ففي هذه الأجواء الخانقة العابقة برائحة السياسة الآن يصطرع حزبان سياسيان على سيطرة الشارع في زاخو: الشيوعي بعد تموز ١٩٥٨ وإنفلات الأمور لصالح المنظمات الجماهيرية من طلبة ونساء وعمال، وكان لزاخو موعد مع مهرجانات هذه المنظمات في كل مناسبة وطنية يجوبون شوارعها بمجموعات كبيرة تتوسطها السيارات المحملة فوق طاقتها بأعضائها تصدح أبواقهم البرونزية ودفوفهم المجلجلة بالأغاني والهتافات بالعربية، يستعرضون العضلات السياسية مرددين «سنمضي،

سنمضي الى ما نريد، وطن حر وشعب سعيد...» و«ماكو زعيم إلاّ كريم، مشروع سحق الخونة مشروع عظيم...»، ويتعالى الهتاف بحياة الزعيم الاوحد والجمهورية الفتية ثلاث مرات ويختم بتصفيق الحاضرين ثم يعلن عريف الحفل مقترحاً إرسال برقية عاجلة الى الزعيم الاوحد لإعلان ولاء أهالي القضاء له وللجمهورية الحبيبة. والحزب الشيوعي يستمد قوته من الميليشيات المسلحة التي شكلتها الحكومة للدفاع عن الجمهورية وحراسة الحدود وأطلق عليها أسم «المقاومة الشعبية» وإشتهر من بين قادتها الملازم الأول عدنان في زاخو والملازم الثاني سنحاريب في قصبة پيشخابور، وهذا الأخير إستُقدم لغرض التعبئة الجماهيرية من كركوك ويؤيدهما القائمقام السابق سالم عبدالرزاق، ويتدفق السلاح بإسم جبهة الإتحاد الوطني من الموصل الى زاخو على المقاومة الشعبية التي تحتكره وتحرم أعضاء الپارتي منه، ولدى مطالبة أعضائه تزويدهم بالسلاح والعتاد أسوة بالمقاومة الشعبية يقال لهم «أنتم حزب الأغوات والإقطاع»! أما الحزب الثاني فهو الپارتي الذي إنبرى هو الآخر ولكن بأعداد هائلة قادمة من الريف وسيارات أعضائه، قد أخرج من نوافذها الدهل والزورنا عازفين الأغاني الفولكلورية والثورية الكردية «بژيت ئازادي... بژيت خەباتي ميللەتي كُرد... با بژيت... با بژيت...» (عاشت الحرية، عاش نضال الشعب الكُردي... فليعش... فليعش... فليعش...) يعقبها تصفيق حاد. وبين الحين والحين ينبري شاعر يستنهض الهمم ليغني موّالاً، لا أتذكر منه سوى هذا المقطع الشهير «بابێ لوقمان بەسێ دەنگان گازی دكەت، دەبابی منو رەختان ل پشتان گرێدەن و برنووان لملان بهاڤێژن، دەڕابن سەرخۆ... ئەڤان دوژمنان خوينامە مێتن!» وترجمتها (يناديكم ابو لقمان ثلاث مرات، أيها الأبناء شدوا الأجندة على خواصركم وأحملوا بنادق البرنو على أكتافكم وأنهضوا... فهؤلاء الأعداء مصوا دماءنا!)

إلتفت الخوري الى المطران وقال مقهقهاً:

– إنه ما زال يتذكر شعاراتهم وهتافاتهم واهازيجهم!

ويستمر جميل في وصفه الأوضاع:

– هذا كان الظاهر، ولكن الپارتي سرعان ما إمتص الكثير ليس من كوادر الحزب الشيوعي فحسب، بل كوادر الأحزاب والتكتلات الأخرى بعد بدء ثورة أيلول التي إلتهبت في المدينة وفي الريف كالنار في الهشيم فأصبحت عاصفة هوجاء من أقصى كردستان الى أقصاها، بفضل التأييد الواسع الذي تمتع به الپارتي في أوساط الريف خاصة، ولهذا التأييد أسبابه يأتي في مقدمتها أن رجال الدين الإسلامي والمسيحي كانوا قلباً وقالباً مع الپارتي، وهذا ما يفسر كون معظم القيادات المحلية للپارتي مطعمة برجال الدين الإسلامي. واما رجال الدين المسيحي فبالرغم من الحظر الرسمي المفروض عليهم من رؤسائهم الروحانيين بعدم التدخل في السياسة إلا أنهم يتعاطفون مع الثوار ويساعدونهم وخير مثال على ذلك إعتقال الحكومة لرئيس الأديرة الكلدانية الأنبا روفائيل شوريز في بداية الثورة بتهمة ايواء الثوار ومساعدتهم والحكم عليه بالإشغال الشاقة المؤبدة، ولم يفرج عنه إلا بوساطات داخلية وخارجية بلغت حد تدخل الڤاتيكان.

أتذكر إني كنت لدى المطران يوماً، وإذا بموكب يتقدم من محلة گوندك نحو مركز المدينة، فإرتفعت صدحات الزورنا وقرعات الطبول عند إقتراب الموكب، فهبّ سيادته من كرسيه وتبعناه الى السطح والتفت إلينا وعيناه الزرقاوان العميقتان تغرورقان بدموع البهجة قائلاً:

– ألحان هذه الفئة دون سائر الفئات تطربني!

إلتفت جميل اليه مذكِّراً إياه:

– هل تتذكر تلك الواقعة، سيدنا؟

– نعم، أتذكرها جيداً!

– بإعتقادي لو لم تكن رجل دين لنزلت الى المسيرة تهزج معهم!

– ربما!

– لم أعجب فأنت من قرية آرادن التابعة لقضاء ئاميدي.

وبينما النقاش يزداد حدة دخل عليهم القس گوريال وهو يستغرب إرتفاع

صوت المطران في النقاش، فبعد أن إتخذ مجلسه، قاطعه بقوله:

– أبا أنور، مرحلة المهرجانات والمسيرات إنتهت والثورة رحلت الى الريف ومايجري فيه هو الأهم، وأنا خبرته لأني خدمت فيه سنوات طويلة. إن الإنهيار المفاجيء للنظام الإقطاعي ترك فراغاً لم تملؤه الحكومة أو الأحزاب لأن الأسس الإجتماعية والإقتصادية لم تكن جاهزة لإقامة النظام الجديد، صدقت، إن الحلبة أزدحمت بالحزبين المتنافسين على الجماهير ولم يعد متنفس لطبقة الأغوات الأغنياء التي كادت أن تزول على أثر صدور قانون الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية الزراعية، ففقد هؤلاء الأغوات نفوذهم الواسع في الفترة ما بين ثورتي تموز العراقية وأيلول الكردية، لكن الپارتي لم يكن أبداً معادياً للأغوات لكونهم آغوات! ففي وسط المدينة، آل شمدين آغا بما فيهم أسرتا حازم بك وحاجي آغا لم يبق لهم في زاخو وريفها غير قصورهم وأملاكهم التي هجروها الى الموصل وبغداد وبلدان الخارج لاسيما بعد وفاة المرحوم حازم بك عضو مجلس الأعيان والوزير في كابينة توفيق السويدي في العهد الملكي.

وأبناء عبدالكريمي رشيد آغا لم تمهلهم الأحداث التي تلت ١٤ تموز ليقفوا على أقدامهم كما كان والدهم يصول ويجول في زاخو بإستثناء محسن آغا الذي يعقدون عليه الآمال الواسعة.

وفي أقصى غرب القضاء كان عزيز آغا الغني الذي بسط نفوذه المالي على منطقة السليڤاني منذ الثلاثينات، وإستحوذ على تجارة الحدود عن طريق رجاله من قريتي پيشخابور وديربون وبعض العشائر الإيزيدية، وإنشغل بهوايته المفضلة في شراء القرى والأراضي الزراعية دون أن تجري صفقة شراء أو بيع في المنطقة بغير علمه، هاجر الى بغداد بعد تهديدات المقاومة الشعبية له بإشهار الحبال في وجهه طالبين منه «اين هويتك؟»، لكن عزيز آغا الجريء أشبعهم سباباً، قضى نحبه بحادث سيارة العام الماضي.

وفي الطرف الشمالي كان بشار آغا وإخوانه، ومنهم محمد آغا، الذين رغم كونهم كثيري العدد والعدة ويتمتعون بحصانة جبال منطقة السندي

إلا أنهم لم يكونوا قد جمعوا ثروة كبيرة كما جمعوا فيما بعد من تجارة الماشية والصفقات التجارية مع العشائر الكردية على الجانب التركي، وكانوا قليلي الإختلاط بأوساط زاخو المترفة إذ أنهم ينتجعون صيفاً في مرابع زوزان ئاڤا گوزي الجميلة على الحدود، ويهبطون شتاء الى أطراف زاخو مع مواشيهم خوفاً من أن تتهمهم السلطة بالعصيان أو التسلل عبر الحدود والتعاون مع «اعداء الجمهورية وعملاء حلف بغداد»، تلك التهم الجاهزة آنذاك، مما لم يؤهلهم للعب دور حازم بك أو عبدالكريمي رشيد آغا مثلاً.

وأما الحاج صادقي برو كبير منطقة الگولي فقد إنزوى في جبال منطقته لا يتدخل في مجريات الأمور ولا يعرف عنه الكثير رغم أنه ناصب الإنگليز العداء سابقاً وطبقت شهرته الآفاق فأصبحت بطولاته مادة للأغاني الشعبية ومنها «كەلا شيبانيێ» وتمتع بمنزلة رفيعة لدى الپارتي وإحتفظ بعلاقات ود وإحترام مع البارزاني عبر مسؤول الپارتي في زاخو الشاب النشط صالح يوسفي.

ولا ريب إن هؤلاء الأغوات مارسوا أيام الملكية بعض السيطرة على فلاحيهم إلا أنهم لعبوا دوراً هاماً في حماية المنطقة في العهد الملكي لاسيما فيما يخص الإدارة المحلية والنزاعات العشائرية بموجب النظام الإقطاعي فأنقذوا الكثيرين من السجون وبطش الحكومة وما الى ذلك. وبما أن مصالحهم كانت مرتبطة بالمدن الكبيرة كالموصل وبغداد لذا كانت هذه المدن قبلة إنظارهم، فيها يقضون أوقاتهم السعيدة وفي فنادقها وأماكن لهوها يصرفون دنانيرهم لا حسيب ولا رقيب على تصرفاتهم الهوجاء أحياناً.

ولكن هذا الضمور في نشاط هؤلاء الأغوات لم يدم أكثر من ثلاث سنوات وبضعة شهور، فما أن لعلعت الرصاصات الأولى لثورة أيلول حتى قامت الحكومة بإستدعائهم جميعاً لنصرتها عدا حازم بك وعزيز آغا لوفاتهما ونجحت الى حد كبير في إستمالتهم مع مجموعات من بطانتهم أطلقت الحكومة عليهم في البداية إسم «الموالين»، ليعودوا ثانية

الى مسرح الأحداث بضراوة لا مثيل لها وقامت الحكومة بتسليحهم لمحاربة الثورة وإرتموا في أحضان السلطة التي إضطهدتهم حتى الأمس القريب ووضعوا أنفسهم في خانة الإرتزاق في العهد الجمهوردي والزعيم الذي قلب ظهر المجن للأحزاب الوطنية، فعمت الفوضى وإنقلبت المقاييس، ولولا النواة الصلدة للثورة المتمثلة بالبارزاني وصحبه لأجهضوها قبل أن تولد كما فعلوا في ثورات بارزان السابقة إذ وعدوا البارزاني ونكثوا بوعدهم.

ثم سألهم المطران عما يدور في المدن العراقية الأخرى.

ساد صمت قصير قطعة الخوري بالإجابة:

– سيدنا، المدن العراقية الكبرى لا تعلم أو لا تبالي بما يجري في كردستان، إنها تنام وتصحو على أغاني أم كلثوم، فبغداد لا يهمها إذا إحترقت كردستان بمن فيها، لأن الأهالي فيها يعتقدون أن «الزمرة المارقة» تم القضاء عليها وماهي إلاّ أيام حتى تسلّم بقاياها من المغرر بهم أنفسهم للحكومة، لأن قطب الرحى ومركزه في الصراع السياسي هو النزاع الدائر بين الشيوعيين والقوميين. كنت في بغداد قبل أسبوعين ولمست هذا الذي أقوله لمس اليد.

وكلما إقتربت من كردستان كلما شعرت بالوضع الإستثنائي الشاذ السائد فيها، ففي الموصل يعرف الناس أن هناك حركة تمرد وعصيان نشطة، وذلك من خلال تحركات قطعات الجيش على الطرق المؤدية الى شمالها، ومن إرتفاع الإيجارات وأسعار البيوت لاسيما في أحياء النبي يونس ودەرگەزلى وفيصلي والزهور والساحل الأيسر عموماً، لأن أعداداً هائلة من الأغوات وأعوانهم نزحوا إليها، وتراهم أحياناً كثيرة يمشون في أسواقها يتبعهم بعض حراسهم المسلحين يرتدون الزي الكُردي يتبضعون بكل جديد في أسواقها.

إختتم الخوري كلامه قبل أن يولع سيگارة أخرى متسائلاً:

– لا نعلم ما يجري في الجبل مؤخراً، إنه كالهدوء الذي يسبق الإعصار!

رد عليه القس گوريال بعد أن رشف ما تبقى في قدحه:

– أبونا، لا يغرّنكم هذا الهدوء فالإعصار قادم لا ريب، نحن في أيار ١٩٦٢ وها قد مضت تسعة أشهر ثقيلة منذ إنطلاق الحركة الكردية في أيلول الماضي، ثلاثة فصول إنقضت، خريف وشتاء وربيع ونحن بإنتظار مايحمله الصيف الأول من عمرها. بعض مراكز الأقضية الكبيرة مثل زاخو التي حررتها قوات الرعيل الأول من الپيشمەرگه في الخريف الماضي لفترة قصيرة قد سقطت أمام زحف الدبابات وقصف سلاح الجو. بعض الپيشمەرگه الذين إلتحقوا بالحركة من ذوي الحماس الثوري المؤقت والنفس القصير قد تركوا صفوفها وإشترتهم الحكومة لأنهم إعتبروها نزهة قصيرة وهي لم تكن كذلك، وآخرون جدد إلتحقوا بها. وإنسحب المقاتلون الى الريف والمعاقل الجبلية وحرروها من نفوذ الحكومة بإستيلائهم على مخافر الشرطة والنقاط الحدودية وأصبح خط الدفاع الأول المناطق الجبلية الواقعة خلف مركز ناحية شرانش شمالاً وباتوفا شرقاً حتى ضفاف الخابور ومنها بإتجاه الشمال الشرقي منطقة بەرواري بالا وأصبحت جبال گلي پس آغا وگلي كەشان بؤراً للپارتيين . مدينة زاخو سقطت ومعها سقطت كل ناحية السليڤاني وبعض مناطق السندي والگولي، ولكن السفوح الشمالية لجبل بيخير والتي فيها قرى بيزهي وبيتاس ودولا وأرمشت حتى تصل گلناسك وملهنبان التابعة لدهوك ما زالت تحت سيطرة الثوار. ورغم هذا فإن مفارزهم الصغيرة ما زالت تصول وتجول في مناطق السليڤاني السهلية لتكديس الحنطة لصنع الخبز والبرغل والعدس لتموين الجبهة ولجمع إشتراكات أعضاء الپارتي وهباتهم في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة، وهي في الوقت نفسه تجمع الكثير من المعلومات القيمة عن تحركات الحكومة والمرتزقة ولكن خوفهم المستديم هو قيام الحكومة بإحراق حقول الفلاحين بالمدفعية والطائرات، لمنع حصول الپارتي على العشر الذي يجبيه من المحاصيل، سيما وأن موسم الحصاد على الأبواب في معظم مناطق كُردستان.

القائد العام الجديد أسعد خۆشەڤي الذي أوفده البارزاني ليمثله في باديناں وصل لتوه، وقد وضع البارزاني تحت إمرته كلاً من عيسى

سوار يعاونه هاشم ميروزي لجبهة زاخو وعلي خليل لجبهة دهوك وحسۆ ميرخان يعاونه أخوه حاجي لجبهة ئاكري وشيخان، بينما يبقى أسعد يعاونه إبنه الشاب سليم مسؤولاً عن هيز ئاميدي في الخلف ومشرفاً على تنسيق العمليات وخطوط التموين وتوجيه الأوامر العسكرية لما يطلق عليه الجيش الثوري الكردستاني (لەشكرى يەكـ). تمّ جمع القيادات الحزبية المحلية وفيها برز ماموستا جميل وعثمان قاضي وشعبان حجي سعيد وملا صالح بالقوسي وحجي رمضان چمزراڤي وملا باسولا وحجي حاجو پەراڤي ورؤوف ملا جامي وملا حمدي ووضعت تحت تصرف عيسى سوار الذي أصدر تعليماته بتشكيل ثلاث وحدات أصغر سميت «لەق»، واللق بدوره تفرع الى وحدات سميت «پەل»، والپل الى وحدات أصغر سميت «دەست». وبرز في هذه التشكيلات العسكرية كل من علي هالو بوصلي وسليمان حاجي بدري (سندي) وأحمد طيار ومحمودي حمري ولطيفي چينا پيبزني وسلمان كەلوكى وعبدالكريمي حامد من گلي پس آغا وحنا طلو من ليڤو وعبدالرحمن دينو هەفشنى وشريف موسى مچولي وأخيراً نافو پەراڤي.

ذهل المطران لمعلومات القس، وأخذ يسأله:

– من أين لك هذا وهل من مزيد؟

إستوى القس في كرسيه مداعباً لحيته مسترسلاً:

– أصبح الپيشمەرگه الى حدٍّ ما جيشاً منظماً له قيادته وتسلسل مراجعة وخف الولاء العشائري شيئاً ما، يتم تزويدهم بالوجبات الثلاث وأمواس الحلاقة والتبغ وورق لف السكاير، يقال إن القيادة ستصرف لهم راتباً قدرة ثلاثة أرباع الدينار للأعزب وثلاثة دنانير لأصحاب العوائل منهم ولكن هذا ليس في حكم المؤكد. ويُقال أيضاً أن القائد عيسى سوار يخطط لضربة عسكرية بعيدة تفقد الحكومة توازنها، يقول البعض أنها ستطال منابع نفط عينزالا ولكن مثل هذه العملية الجريئة صعبة التنفيذ لأن عينزالا تقع في مناطق سهلية تبعد مسيرة يوم ونصف وبينها وبين المناطق المحررة نهر دجلة الذي عليهم عبوره مرتين. آخرون يتحدثون عن

خطة لتطويق قافلة تموينية للجيش أو محاصرة فوج زاخو لدى إنسحابه وإستبداله بفوج آخر وهو ما يزال في مضيق زاخو ومثل هذه الإستعدادات تتم في السرية التامة. الأوضاع سيئة، لكن المعنويات عالية، المقاتلون بحاجة الى بنادق جديدة وعتاد يكفي لمعارك كثيرة خلال الصيف القادم. ما زال الپيشمەرگه يلبسون الشال والشەپک وهم بحاجة الى زي موحد من الخاكي وأحذيتهم المطاطية التركية الصنع والتي تسمى «جزراوي» أصبحت لا تطاق فكيف بها مع إشتداد حر الصيف. البعض التجأ الى إحتذاء ما يسمى «كالات» ولكن معظم الپيشمەرگه الفقراء لا تساعدهم أحوالهم المادية على شرائها، فهم يصنعون أحذيتهم من الإطارات البالية للسيارات ينسجون حوافها بخيوط صوفية أو قطنية ملونة ويسمونها «كالك» وهي فعالة جداً لتسلق الصخور في الجبال.

لم يعد القس قادراً على إخفاء إعجابه بالحركة فقد فضحه إنفعاله وتحمسه وأخذ يسميها ثورة وهو يختم حديثه:

– إنقضى فصل الشتاء وصمدوا وأثبتوا للدنيا إنهم قادرون على تحمل المشاق وإنهم أصحاب قضية عادلة، فالشعب الكُردي تداس كرامته ومدن كُردستان محتلة من جيش وپوليس لا رحمة له، وريفها يعيش في العصور المظلمة وهو يكاد يطفو فوق بحر من الذهب الأسود تسرقه حكومة ظالمة. تدور الإشاعات حول مسعى الحكومة للتفاوض مع القيادة ولكن من يثق بها، فالزعيم يصرح دائماً بأن «الفتنة الرعناء» من صنع أمريكا وبريطانيا، وأمريكا تتهم الثورة بأنها مدعومة من السوفييت وتسمي قائدها «الملا الأحمر».

2

الوفادة

السبت ٢٦ أيار ١٩٦٢

منذ البارحة إتصل آمر الفوج الأول عبدالمجيد السبع بسيادة القائممقام أحمد المفتي، لكيما يكلف سيادة المطران بالقيام بمهمة الوساطة، بعدها أشيع عن تقديم الحاج صادقي برو الولاء والإخلاص للدولة.

بعد القداس جلس المطران الشيخ وسكرتيره الخوري الشاب الوسيم ذو اللحية القصيرة الكثة المائلة الى الحمرة والشعر المتموج المدهون دائماً، على مائدة الفطور القشف الذي يتكون عادة من الخبز واللبن بالإضافة الي البيض والشاي، وبينما الإثنان منهمكان بكسر قشرة البيض راح المطران يسأل الخوري وعيناه الزرقاوان لا تفارقان البيضة والقشور فيضعها بإهتمام على جانب الماعون:

– لم أسمع الأخبار منذ يومين، هل من جديد، أبونا؟

– سيدنا، لا جديد، راديو لندن كان هذا الصباح يتكلم عن الأوضاع في العراق، لكني إنشغلت بإعداد موعظة الأحد لذا لم يتسنَّ لي التركيز على النشرة الإخبارية كاملة، إكتفيت بموجزها فقط.

– هل من أخبار جديدة عن الكُرد والحرب الدائرة؟

– الكلام يدور عن معارك ضارية وقعت في منطقة گلي علي بك بين الجيش والپارتيين، هناك خبر آخر عن تبرع الزعيم بمبلغ كبير للثورة الجزائرية.

– عجيب! أليس الأحرى به أن يصرف المبلغ على أبناء شعبه من العرب

والكُرد، أظنها مزايدة سياسية على حساب جمال عبدالناصر في موقف قومي! تستوقفني إذاعة بغداد إستيقاف الحائر فهي صامتة عما يجري من خراب ودمار، فالأخبار العالمية التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل تستأثر جلّ إهتمامها على حساب أخبار الوطن! لماذا هذا التكتم؟ لماذا لا يطلعون الشعب على حقيقة ما يجري في البلد؟ كلما نسمعه من إذاعتنا هو برقيات الولاء المزعوم من الأغوات والمخاتير الى الزعيم!

– سيدنا، الحكومة يخيفها أن يعرف الناس ما يدور في البلد! ألم يعلن الزعيم نهاية التمرد وعودة الأمور الى طبيعتها؟ فإذا صدق قوله لماذا يرابط هذا الفوج في زاخو ومدافعه موجهة نحو الجبال؟ لماذا ترابط الأفواج الأخرى في ئاڤگەنى وباتوفا وئاسهي؟ أهي لحمايتنا من تركيا أو سوريا أو مما يسمونه بالإستعمار الأجنبي؟ أليس كل ذلك لمحاربة الكُرد؟

– منذ عودتي من أمريكا وتعييني في زاخو، لم أسمع خبراً سارا واحداً. الأخبار كلها عن القتل والتشريد والنهب والسلب وحرق الحقول والمزروعات. ليتني بقيت كاهناً بسيطاً في أمريكا ولا أرى هذه الإعتداءات وأنا مطران في زاخو.

– أفي اليد حيلة، هذه حكومتنا الثورية ووسائل إعلامها مسخرة كلها لخدمتها ولتمجيد الزعيم... قام الزعيم، وقعد الزعيم!

– أمرنا لله يا إبني، فلنصلِّ من أجل السلام، لعل الرب يلهم الرؤساء للعمل من أجل السلام والصالح العام.

– نعم، ولكن الفقراء والمساكين هم الخاسرون دوماً وعلى رؤوسهم تقع البلايا!

– لا أود الإستطراد في الموضوع، ولكن ماذا يجري مؤخراً في المدينة؟ أسمع إن الجيش سيقوم بمناورات عسكرية، هل هناك خطورة؟

– الأفواج الثلاثة المعسكرة في قضاء زاخو بالإضافة الى الفوج المرابط في مركز ناحية ئاسهى لم تتقدم قيد أنملة طوال الشتاء كما تعلم، قد تكون تتهيأ الآن لعمليات عسكرية في الصيف القادم. فالجيش لا يسيطر إلا

على الطرق العامة المبلطة، اما الريف فكله بيد الپارتيين.

– صدقت في قولك ولكن الپارتيين أيضاً لم يتقدموا شبراً واحداً طيلة الشتاء بإستثناء بعض المعارك في گلي سپي وأخرى موخراً في ئاقگەنى.

– سيدنا، الپارتيون في غنى عن السيطرة على المناطق إن ما لديهم يكفيهم وإن مرور الوقت وبقاء الأوضاع على حالها هو في صالحهم. فالمبادرة بيدهم، وبوسعهم المقاومة في هذه الجبال لآماد طويلة تنهك الجيش والحكومة.

– كيف يكون الوضع في صالحهم وقراهم دُمرت بالقصف الجوي، والمئات من زاخو والمدن الأخرى نزلاء السجون!

– سيدنا، أتعلم ما تكلفه هذه الحرب خزينة الدولة يومياً؟ العراق لا يصنع المدافع والقنابل والطائرات والدبابات، كلها مستوردة، العراق ليس أمريكا أو بريطانيا، الجيش كله في حالة إنذار وحركات ورواتب الجنود والضباط مضاعفة، أتتصور مقدار السرقات والإختلاس والتلاعب بأموال الدولة في مثل هذه الظروف الإستثنائية؟ قال لي مَن أثق به أن أحد مسؤولي الجيش دفع عشرة آلاف دينار للپارتيين لكي يخلوا له قمة جبل ليحتلها فيتباهى أمام رؤسائه بأنه طهرها من العصاة! أتعرف ماذا سيحدث بعد شهر؟ سيعود الپارتيون ليحتلوا نفس القمة التي باعوها له!

– أتعرف، في أمريكا ليس بوسع رئيس الجمهورية على أهميته، إعلان الحرب إلاّ بموافقة الكونگرس؟ ممن طلب الزعيم الموافقة لإعلان هذه الحرب؟

– سيدنا نحن في العراق، هذا حالنا مع الدكتاتورية. الزعيم يُحيي ويُميت. ممن يطلب الزعيم الموافقة وليس في البلد پرلمان ولا هيئة تشريعية تراقب أعمال الحكومة. ألا تعلم أن البلاد ترزح تحت حكم عسكري دكتاتوري يسمونه ثورياً.

– أجل، ثورياً! نسبة الى الثور لا الثورة!

إبتسم المطران إبتسامة خفيفة مضيفاً:

– يأخذني العجب كيف أن جيشاً قوامه الآلاف وسلاحه أحدث ما أنتجته المصانع ليس بوسعه إخماد حركة عشائر؟

– وراء هذه العشائر يقف حزب مسلح بعقيدة ويقظة.

جاء الخادم بالغلاية الفرفورية للشاي وصب كوباً جديداً لكل من المطران والخوري ورفع الصحون الزائدة من على المائدة بينما أخرج الخوري علبة سيگائر «الجمهورية» وأولع سيگارته الأولى بعد الفطور وإلتهم ما إستطاع من الدخان. نظر المطران الى علبة السگائر الجديدة وسأل الخوري:

– هل إستبدلت سكائرك بهذه السكائر الجديدة؟

– لا، هذه عين سگائر «غازي» التي كنت أدخنها، إنما غيروا إسمها الى «الجمهورية»، كأن العهد الجمهوري هو الذي صنعها.

ثم إلتهم الخوري جرعة أخرى من الدخان أثناها بجرعة من الشاي وهو يفكر ويزن كلماته للمطران:

– تجري إتصالات مكثفة هذه الأيام بين سيادة القائممقام وآمر الفوج.

– حول ماذا؟ ما هي الطبخة التي يطبخانها؟

إلتفت الخوري الى الوراء ليتأكد من أن الخادم لا يسمع كلامه، مردفاً بصوت خافت:

– بالأمس، أسرَّ إليَّ جميل، أبو أنور، كاتب التحريرات أن القائممقام وآمر الفوج تلقيا معلومات موثوقة عن نية الحاج صادقي برو كبير منطقة الگولي بتسليم نفسه وإعلان الولاء للحكومة.

– ما لنا في هذا شأن! ألا ترى هؤلاء الچتا الأغوات لا يقر لهم قرار، فهم اليوم مع الحكومة وغداً مع الپارتيين. إن حاسة الشم لديهم أقوى الحواس فهم يقتفون آثار مَن يلقي بالدنانير عليهم. كأن زاخو بحاجة الى مرتزق جديد!

– سيدنا أبلغني جميل أنهما يبحثان عن شخص موثوق به ليقوم بزيارة الحاج صادقي برو ليسلم اليه رسالة بأسم الحكومة ويحثه على اعلان ولائه، ومثل هذه المبادرة. كما تعلم لا تأتي من آمر فوج أو قائممقام، لا بُدّ وأنها صادرة من المقامات العليا كالمتصرف أو رئيس أركان الجيش،

وعلمت منه أنهما قد إتفقا على أنك خير مرشح لهذه المهمة.

– لماذا أنا؟ أليس هناك من هو أجدر وأقدر؟ ماذا عن الأغوات؟ لهما حاجي آغا ومحسن بەرواري وغيرهما.

– سيدنا، الحكومة لا تثق بالأغوات لإرسالهم بمثل هذه المهمة، وبإعتبارك رجل دين كبيراً، لك منزلتك الإجتماعية ومحبوب بين المسلمين والمسيحيين في القضاء، ثم أنك من أبناء المنطقة وتجيد الكُردية وتحسن التعامل مع الأغوات. هذه طبعاً إعتباراتهم، وأنا شخصياً لا أرجو خيراً من ذهابك.

– أشكر لطفك، إنه لشيء جميل أن أكون عامل خير في هذا المجتمع وفي هذه المدينة التي ربطت مصيري بها وبمستقبلها، فإن كلفوني رسمياً حزمت حقائبي وذهبت للقاء صادقي برو بهذه المهمة الإنسانية ألم يقل المسيح طوبى لفاعلي السلام! لكن قلبي سيتفطر إذا رأيت خلال سفري قرى مهدمة وحقولاً محروقة وشعباً بائساً كما أسمع هذه الأيام.

– الأمر أمرك سيدنا، رغم أني أخالفك في الرأي، ليس لي إلا الإمتثال، مع هذا فالمسألة تعنيني لأن عليَّ أن أرافقك الى حيث أنت ذاهب.

– أفهم كلامك، ولكني أخشى أن أثقل عليك إذا كلفتك بمرافقتي وأنت لا ترغب القيام بذلك عن قناعة تامة.

– هناك شيء آخر... ماذا عن البطريرك بولس شيخو؟ كيف تواجهه إذا حدث شيء لم نحسب له الحساب؟

– هذه أمور داخلية في ابرشيتي، ألم يكن هو الآخر يتعامل يومياً مع الأغوات الزيباريين والسورچيين عندما كان مطراناً لعقرة ثم إنه مشغول في بغداد بألف قضية وقضية. أنا أتصور إنها خدمة إنسانية جليلة نقدمها لقضاء زاخو بكل طوائفه وأطيافه إذا نجحت الوفادة.

– أجل إذا نجحت الوفادة! وماذا عن البارتيين؟ كيف سيسمحون لنا بالتجوال في المناطق التي تحت سيطرتهم؟

– أبونا، نحن رجال دين مسالمون لا علاقة للپارتيين بجولاتنا التفقدية بين رعايانا. من يعلم فقد يرحبون بقدومنا. ثم أننا تعرفنا على قيادتهم أثناء وقوع زاخو لفترة قصيرة بأيديهم الصيف الماضي، ألا تتذكر الشاب

الطويل الطيب صالح اليوسفي وملا حمدي وشعبان حجي سعيد وعلي هالو وسلمان سندي وعثمان قاضي وشفيق محو سعدالله ورؤوف ملا جامي وغيرهم، ألم نذهب الى دائرة القائممقامية للتهنئة وظننا أن الأمور ستستقيم على يدهم؟ ثم أني لاأتصور أن المنطقة قد تفقدها مطران منذ الزيارة الأخيرة التي قام بها سلفنا المطران يوحنا نيسان قبل أكثر من عشر سنوات عندما تجول في كل قرى الأبرشية.

تبادل الرجلان النظرات ثم أخفض الخوري طرفه مردفاً:

– لتكن إرادة الرب!

بعد الفطور إفترق الرجلان وأخذ المطران يخطو في الحديقة جيئةً وذهاباً مطأطأ الرأس كمن يفكر في إيجاد مخرج من مشكلة عويصة. وشرع يقول لنفسه: ماذا سأقول للآغا الكُردي صادقي برو وأنا لا تربطني به رابطة ولم أره قط، كيف تراه يستقبلني؟ أسيفرح بمقدم رجل ديني مثلي الى معقله بشكل علني أم أنه يتوقع أحد عناصر الحكومة الإتصال به سراً دون أن تراقبه عيون الپيشمەرگه الساهرة على دخول الغرباء الى معاقل الثورة؟ كيف سأبادره بالمهمة دون أن يتسرب الخبر الى أعوانه وأهل بيته؟ وماذا لو أحس الثوار بما يجري؟ بعد كل خطوة خطاها كانت هواجس السفر تلاحقه وتنتابه المخاوف من فشل المهمة. فكر برهة في العودة الى الخوري ليعتذر عن عدم مقدرته السفر أو أن الأجدر به أن ينيط الأمر به فهو شاب بمقدوره السفر على ظهور البغال ويتقاعس هو متذرعاً بكبر سنة لكنه شعر أنه قد وعده ولا مخرج له من هذا المأزق.

مرت نصف ساعة وهو يتخطى بحركة غير طبيعية مفكراً دون أن يجد حلاً للمشكلة، وراودته المخاوف من رئيسه البطريرك الذي منع كل رجال الدين المسيحي من التدخل في السياسة خلال السونهادوس الأخير الذي إنعقد في بغداد، ثم خطر على باله أيضاً أن هذا المنع لا يفرضه مجمع بغداد فقط وإنما المجمع الڤاتيكاني الثاني الذي حضره هو بنفسه في روما العام الماضي.

مرت نصف ساعة أخرى وهو ما زال يخاطب نفسه ويذرع الحديقة وصليبه الذهبي الكبير يتدلى من عنقه يضاعف من الثقل الكبير الذي ينوء تحته كاهله،

نظر الى ساعته وعلم أن ساعة قد مرت منذ أن بدأ يتخطى في الحديقة على غير عادته بعد الفطور، وشعر أن الآخرين في المطرانية لا بُدّ أنهم أخذوا يتساءلون عما يدور في رأسه. أسرع فصعد الى مكتبه الكائن في الطابق العلوي وأزاح الستار عن الشباك ليرى السوق وحركة الناس لعله يزيح هذا الكابوس عن صدره، ويهتدي الى حل سحري للمشكلة.

وبينما هو غارق في هذه الأفكار المزعجة لما قد سيحدث، جاء الشماس يونان لزيارته طارقاً باب مكتبه:

– سيدنا، هل هناك ما يزعجك؟

– شيء بسيط، إبني.

– هل لي أن أتجاسر وأسأل مطراني عن السبب؟ يبدو أن شيئاً مهماً يدور في ذهنك، لأني مررت قبل نصف ساعة وأنت تتخطى في الحديقة وسلمت عليك دون أن ترد عليَّ السلام.

– أمور خاصة تجري وأُقحم فيها دون إرادتي!

– أية أمور هذه؟ لعلك تفكر في قصف الحكومة لقرى شرانش وآلانش ويردا التي دمرتها الطائرات مؤخراً وتبدد رعاياك، أم عن مقتل ثلاثة من أقاربك في أرادن قبل أسابيع، أم عن النهب والسلب الذي قام به الچتا الموالون في قرى السليڤاني مؤخراً؟

– بصراحة، يا شماس يونان، أنا مقدم على سفر لا أعلم نتائجه ولا عواقبه!

– أأنت مسافر الى روما مرة أخرى لحضور المجمع المسكوني الثاني؟

– يا ليتني كنت مسافراً الى روما، يا إبني. لكني مسافر الى منطقة الگولي في مجاهل الجبال والوديان وفي القرى والأرياف عند صادقي برو.

– وما شأنك مع صادقي برو، إنه رجل آغا يتعاطف مع الپارتيين وأنت رجل دين؟ أنا لا أرى العلاقة. هل تعرفه؟

– إبني، الحكومة تطلب مني أن أذهب إليه لإقناعه بتسليم نفسه للدولة وإعلان ولائه لها.

– وهل أنت متوجس خوفاً من السفر الى تلك المنطقة، أو من أن الپارتيين

سيمنعونك إذا علموا بالأمر؟

– لا يا إبني، أنا لا أخاف إلا الله وحده، ولكن ماذا أقول للپطريرك، لأن ما أقوم به تدخل في السياسة. أنا رجل دين محايد ومع الكل في آن واحد!

– سيدنا، إذا كانت الحكومة قد طلبت منك ذلك، فلا مناص منه، لأنك إذا إعترضت على ما تطلبه منك إعتبرتك خائناً يقف في طريق مشاريعها السياسية. ولكني أرى خيراً للرعية في ذهابك لذا أشجعك وإني ماض معك ما شاء الله أن أمضي وليكن ما يكون.

إبتسم المطران في وجه الشماس:

– كنت أعلم إن الله لايتركني وحدي أصارع هذه الهواجس ولكن ضميري يؤنبني لأني أعتبر هذا تدخلاً في السياسة وهو محظور علينا نحن رجال الدين، فهو إنحياز نحو فئة دون أخرى.

– سيدنا، لن نفضح الأمر لأحد، فيبقى سراً من أسرار الابرشية.

– ماذا تقول، أبوسع الإنسان أن يتحايل على الله سبحانه، ألا يعلم الله خفايا القلوب وبواطنها. لو نجحت في التحايل على رؤسائي وحجب الحقيقة عنهم، كيف أخفيها عن الله؟ وبماذا أجيبه يوم الحساب والدينونة؟ ثم إن هذه القوانين نضعها نحن لأنفسنا لنسير على هديها لا لكي نخالفها ونحاول الإلتفاف عليها تبريراً لما نقوم به.

– سيدنا، أنت بين نارين، فإما نار الحكومة التي لا ضمير لها وإما عقاب الله وتوبيخ الضمير، وأنا مع خوفي من عقاب الله، أثق برحمته الواسعة، فلو كنت مكانك لذهبت.

– هذا بيت القصيد، إن ثقتي في رحمته تعالى!

غادره الشماس وهو يصارع محنة الضمير:

– سيدنا، سأعود بعد الغداء لننظر في أمر مرافقتك.

– أشكرك على لطفك، يا إبني .

بقى المطران في مكتبه يتصارع مع ضميره، يتضرع الى الله ليلهمه ويهديه.

بعد العاشرة دخل مكتب المطران رهط من الرجال المعممين بعد أن أدخلوا حملاً من المحاصيل الزراعية الى المخزن هدية للمطران، يتقدمهم رجل طويل

القامة رفيع القد يرتدي بدلة جديدة من الشال والشەپك بنية خفيفة ويتمنطق بشال عجمي رفيع ويعتمر اليشماغ، إنه شەنۆ بن مسوري رحانه كبير الكزنخية ومختار قرية ئاڤزروك، إنحنى ليقبِّل خاتم المطران مخاطباً إياه بالكُردية فهو لايجيد غيرها:

– ئەزبەنى، چاوانى؟ (جعلت فداك، كيف أنت؟)

بعد أن قبّل الجميع خاتم المطران دعاهم للجلوس وهو يردد عباراته الترحيبية المعتادة:

– أهلا بكم يا أولادي! كيف أحوال ئاڤزروك؟ هل هناك إعتداءات من الچتا؟ سمعت إنهم هاجموا قرية صوريا وأحرقوها وعلى مدى علمي إن أهاليها من أقاربكم.

– نعم أحرقوها وتبدد أهاليها وسرقوا مواشيهم.

– كيف أحوال خەمۆ واخويه موسى و هرمز؟ كيف أحوال أخويك عيسۆ وبەندۆ؟

– كلهم بخير، سيدنا.

إستأذنه شەنۆ:

– سيدنا، نحن نعرف أنت رجل كثير الأشغال وقته ثمين، ونحن أيضاً أمامنا طريق طويل للعودة الى القرية، جئناك بطلب نرجو أن ينال موافقتك وبركتك فأنت مرجعنا الديني الأعلى.

– تفضل إبني، فالوقت لا يسمح لأن لي بعض الأشغال مع سيادة القائممقام.

– هذا الشاب الذي على يميني قد عقد العزم على الزواج من إبنة عمه، ونحن نعرف إن هذا محرم شرعاً ولكن لأسباب عائلية ومعيشية قاهرة أرى أنه من الضرورة لمٌّ شمل هذه العائلة المنكوبة فأبوا خطيبته توفاهما الله ولا معيل لها، لذا جئناك للحصول على إستثنائه وطلب موافقة المطرانية.

أطرق المطران برهة ثم قال:

– هذه المرة الأخيرة التي أسمح بمثل هذه الزواج لأني علمت من مصادري

الخاصة إني سمحت بحالة أخرى كذب أصحابها عليَّ وأنا نادم على منح الرخصة لهم.

رد عليه شەنۆ مستنكراً ما فعله أولئك الدجالون:

– سيدنا، هذه حالة حقيقية، ولولا كونها كذلك لما إصطحبته الى ديوانك. ونشكرك جزيل الشكر على هذا الإعتبار.

عاد المطران الى مكتبه الخلفي وخط بعض الأسطر على ورقة رسمية ودمغها بخاتمة ووضعها بإعتناء في مظروف معنون الى القس عمانوئيل خوشابا كاهن القرية، إستلم شەنۆ منه الرسالة شاكراً لطفه.

غادروا ديوان المطران كما دخلوه بتقبيل يده تاركين وراءهم القهوة التركية دون أن يشربوا نصفها.

وما أن إنتهى المطران من قضية ئاڤزروك حتى قدم اليه وفد من قرية بيدار يلتمسه:

– سيدنا، إن فوج زاخو يوجه مدافعه نحو قريتنا، وعلمنا أنهم سيقصفونها بالمدافع بتهمة إيواء المتمردين العصاة نرجو تدخلكم السريع لإنقاذنا!

إضطرب المطران ودعا الخوري يستشيره بالأمر:

– أيهما أفضل تكليف القائممقام أم الإتصال بآمر الفوج؟

– هذه أمور عسكرية إذا تركتها لروتين السلطات المدينة آملاً أن يتصل القائممقام بآمر الفوج ستكون نهاية القرية، الأفضل أن نتصل بالفوج مباشرة.

– أسرع، أسرع، إتصل بآمر الفوج علي العبوسي وإستعلم منه عما هم فاعلون.

بادر الخوري وإتصل هاتفياً بالعقيد قائلاً:

– جاءنا وفد من قرية بيدار وهم في مجلس المطران الآن يخبرونه إنكم على وشك قصف قريتهم بالمدافع، هل في الأمر صحة؟

– أبونا إن قصف القرية يدخل ضمن قرار رئاسة أركان الجيش الذي يقضي بقصف القرى التي تأوي المخربين العصاة.

– ما هذه الأوضاع؟ أنتم من جهة تكلفون سيادته بالوفادة ومن جهة أخرى

تقصفون قرى رعاياه! ما هذه الإزدواجية في العمل؟ أليس لكم تنسيق بين أفواجكم؟

– أبونا، قل لسيادته، أمره مطاع وكل شيء سيكون كما يشاء.

وضع الخوري السماعة مستبشراً:

– سيدنا، إنتهت المشكلة بسلام!

– ما الذي جرى؟

– وعدني آمر الفوج بعدم المساس بالقرية بناء على طلبك.

ردَّ المطران متحسراً:

– نشكر الله فهو الذي أنقذ هذه القرية المسكينة. ولكن كم قرية أخرى بوسعي أن أحمي!

بعد الظهر وبعد أن فرغ الرجلان من تناول الغداء توقفت سيارة جيب قيادة عسكرية روسية الصنع أمام دار المطرانية، وترجل منها مساعد آمر الفوج العقيد عبدالله الخزرجي مع نقيب آخر.

خرج الخوري للقائهما عند الباب الرئيسي للمطرانية.

قدم مساعد آمر الفوج العقيد عبدالله الخزرجي زميله النقيب حازم الجماس ضابط إستخبارات الفوج للخوري بلهجة موصلية مفضوحة:

– أبونا، أقدم لك النقيب حازم الجماس من ضباط الفوج الأول، إنه ساعدي الأيمن.

– أهلاً وسهلاً، هل قلت له أن هذا بيت الرعية، فمتى ما ضاقت به الدنيا هذا بيته!

بادر النقيب بالإعتذار والشكر على اللطف والحفاوة:

– شكراً، أبونا، أدامك الله وأدام هذا البيت بمن فيه!

نظر العقيد الى ساعته فتذكر أن له موعداً آخر في دائرة القائممقامية حيث سيجتمع مع أقطاب الأغوات الموالين ثم قال:

– أبونا، هلا فاتحت سيادته بالموضوع الذي تكلمنا عنه يوم أمس؟

– قمت بذلك هذا الصباح أثناء الفطور.

– وماذا كان رد فعله؟ هل له الإستعداد للسفر؟

ثم أردف:

– أبونا، نحن لا يمكننا أن ننسى فضل سيادته على الوطن والدولة، لقد أثبت حكمته وجدارته أيام المحنة، فأنقذ بلباقته حياة القائممقام ومدير الشرطة والطبيب عندما أسرهم العصاة يوم إحتلال زاخو وأنقذ بذلك المدينة من حمام دم محتم في الخريف الماضي.

– في البداية، إعترض لعدم كفاءته مقترحاً إرسال أحد الأغوات لكنه إستدرك وأبدى إستعداده لإعتبارات دينية وإنسانية كرئيس ديني مسؤول في المدينة.

– أرجو إعلامنا إذا إحتجتم الى واسطة نقل أو حماية الى باتوفا. فنحن مستعدون لدفع مصاريف السفر والإقامة.

– ما نحتاجه هو سيارة جيب لاندروفر مدنية.

إلتفت العقيد الى النقيب مخاطباً:

– مهمة توفير السائق والسيارة بعهدة النقيب. له سواق أمناء، أحدهم إسمه محمود، وهو من المنطقة ويعرف الطرق وكيفية تجنب العصاة ومواقعهم.

إستأذن الخوري مشيراً الى الديوان ودعاهما للإستراحة:

– تفضلا، اشربا قدحاً من اللبن أو العصير.

جلس الثلاثة في الديوان، مد العقيد يده الى جيبه وأخرج منديلاً أبيض ليمسح به العرق المتصبب من وجهه مردفاً:

– الطقس حار هذا اليوم، إذا كان هذا حالنا في أيار فما عساه أن يكون في تموز وآب، هل لنا أن نشرب شيئاً من اللبن البارد؟

– بلى، إنه موجود وحاضر.

إستدعى الخوري الخادم مشيراً الى تقديم اللبن للضيفين.

ساد صمت قصير شرب الضيفان فيه اللبن بتلذذ، قطعه العقيد بالسؤال:

– أين هو سيدنا، فنحن على عجلة من أمرنا.

– إنه في قلايته، سينزل بعد لحظات، فكما تعرف أنه رجل كبير السن إعتاد على وسائل الراحة في أمريكا. قبل أيام إبتعنا له مكيفة هواء

خاصة لغرفة نومه.

قاطع النقيب متسائلاً:

– أقلت في أمريكا؟ ماذا كان يعمل هناك؟

– كان كاهناً في مدينة ديترويت بالولايات المتحدة ومكث هناك سبع سنوات يخدم، وقد تمكن من شراء قطعة أرض هناك وبنى عليها كنيسة كبيرة لجماعتنا المغتربين العراقيين الكلدان، حتى تم إنتخابه مطراناً لزاخو وتوابعها.

– ما شاء الله! ما شاء الله! مطراننا يرفع الهامات.

رن جرس التلفون، فإستأذن الخوري من زائريه للإجابة:

– هلو، مطرانية زاخو، تفضلوا!

– أهلا، كيف صحة الخوري؟

– عفواً، من حضرتك؟

– القائممقام أحمد المفتي، أنا أبو محمد، أبونا!

– أهلاً وسهلاً، يا أبا محمد، عفواً لم أعرف صوتك!

– أشعر بذبحة صدرية منذ يومين، قل لي، سيدنا موجود في المطرانية؟

– نعم، لحظة، سأدعوه على الخط.

– دعنا نتكلم أنا وأنت ثم أعود إليه عند حضوره.

– جماعة الفوج جالسون عندي، ونحن بصدد البحث في الموضوع.

– هل فاتحت سيادته بالمهمة؟

– اليوم صباحاً، شرحت له كل شيء بالتفصيل.

– ماذا كان جوابه؟ هل أبدى شيئاً من المرونة؟

– كما تعلم، إنه رجل كبير العمر، ولا يحب المغامرات.

– هذه ليست مغامرة، أبونا، هذا واجب وطني ، هل تعرف إن تقديره وإحترامه سيرتفعان الى القمة إذا علمت الحكومة في الموصل وبغداد أنه أنجز هذه المهمة الوطنية؟ مَن يعلم، ربما كانت هذه المهمة الوطنية والإنسانية سبباً في إرتقائه الى درجة البطريرك في المستقبل.

– على أية حال إنه مقتنع لا بل متحمس ومستعد للسفر.

– أبونا، أنت عظيم! أنقل إليه تحياتي وقل له إننا لن ننسى فضله.

– هل تريد أن تتكلم مع جماعة الفوج؟

– كلمة واحدة مع العقيد.

دعا الخوري العقيد على التلفون وناوله السماعة:

– هلو، سيدي، كيف الأحوال؟

– بخير، بخير، إن شاء الله.

– الخطة في طريقها الى الهدف كما رسمناها!

– كن حريصاً لئلا يصدر منك أي شيء ينبيء أن هناك خطة أو ما شابه ذلك. كلّ ما هناك أن سيادة المطران سيقوم بزيارة تفقدية لرعاياه في منطقة العصاة ونحن كحكومة واجبنا يقضي أن نوفر له اللازم!

– لا سيدي، لولا تخطيطكم أنتم سلطات المدينة فنحن لا نقدر أن نحرك ساكناً.

– لا تنسَ الموعد مع الأغوات بعد ساعة.

– من منهم سيحضر؟

– سيحضر من الأغوات الكبار حاجي آغا ومحسن بەرواري وعبداللطيف زيباري وآخرون من الأغوات الصغار لا تحضرني أسماؤهم.

– هل سنطرح مهمة سفر سيادة المطران في الإجتماع؟

– إنهم على علم بالمهمة، كل على حدة، لكن الإجتماع ليس لهذا الغرض، الإجتماع غرضه مناقشة ما سيقومون به من جمع الموالين وتسليحهم لمساندتكم في المعارك القادمة، هذا الصيف لا بُدّ أن نقضي على العصاة.

– سيدي، بلغتنا معلومات جديدة مؤكدة أن الملا ومعه شلة من العصاة البارزانيين قد يتحركون من منطقة سەرسنگ الى مناطق الگولي والسندي هذا الصيف. هل لك علم بالموضوع؟

– سمعتها أنا أيضاً، ولكن هذه شائعات غير مؤكدة، قد تكون دساً رخيصاً من العصاة، وقد إتصلت بقائممقام كل من دهوك والعمادية لإعلامي فوراً في حالة تحرك العصاة بإتجاهنا.

– على أية حال، لا تنسى فنحن اليد الضاربة للثورة.
– هل بإمكاني أن أعود الى الخوري؟
– أبودك أن تسمع آخر نكتة عن الكاكاوات؟
– أجِّلها لحين لقائنا في النادي. ناولني الخوري.
إلتفت العقيد الى الخوري وناوله السماعة. والخوري واضعاً يده على السماعة يقول للعقيد مقهقهاً:
– هذه كلمة أم كلمات؟ دخلتم في موضوع سيادة المطران والأغوات والچتا والملا والبارزانيين... هل بقي موضوع لم تتطرقوا اليه؟
ثم رفع يده عن السماعة قائلاً:
– هلو، أبو محمد، سيدنا قادم، إني أسمع خطواته، يبدو أنه أخذ قسطاً وافراً من الراحة بعد الكبة الموصلية الثقيلة التي تناولناها!
حضر المطران، وإنحنى الخوري أمامه وناوله التلفون بوقار قائلاً:
– سيدنا، إنه أبو محمد، القائممقام.
– أبو محمد، كيف صحتك، لم أرك منذ إجازتك الأخيرة، كيف أحوال العائلة. أرجو أنكم جميعاً بخير.
– سيدنا، أخذت العائلة الى بغداد لعطلة عيد العمال العالمي وإشتركنا في المهرجانات الضخمة التي تقام في العاصمة بهذه المناسبة كما زرنا بعض أبناء عمومتي هناك. سيدنا، والله نحن مشتاقون لزيارتكم، وسماع أحاديثكم عن عجائب وغرائب أمريكا، ولكن كما تعرف أننا في حالة حرب مع العصاة المخربين وتنسيق الامور بين الموصل والجيش والأغوات يلتهم كل أوقاتي، هذا بالإضافة الى الامور الإدارية الإعتيادية.
– أعانكم الله، إن بعد العسر يسراً. أبو محمد، أرجوك أن تهتم بأمر الناس البسطاء والفقراء المساكين، فأملهم الوحيد أن تولي الحكومة أمنهم الإهتمام، بلغني أن الكثير من الفلاحين القرويين الأبرياء يصيبهم الظلم من الچتا، منهم مَن يُسجن، ومنهم مَن يُعذب بتهمة إيواء الپارتيين وهم أبرياء منها. أرجو السيطرة على الچتا فهم رأس البلاء.
– سيدنا، من أجل أولئك الفقراء جاءت الثورة، والزعيم دائماً يذكرنا أنه

واحد منهم ومن أجلهم سن قانون الإصلاح الزراعي ونحن نحاول قدر المستطاع تحقيق العدالة والمساواة، ولكن كما تعلم أنا لا أستطيع أن أكون في كل مكان، وأشرف على كل قضية.
– بلغني أيضاً إنكم رشحتموني لمهمة صعبة. أملي أن لا أفشل في إتمامها! أجد فيها كثيراً من العناء والمشقة.
– لا، إن شاء الله ستكون مهمة ناجحة وسفرة ممتعة، وكما شرحها لك أبونا الخوري، فهي لا تأخذ أكثر من يوم أو يومين من وقتك الثمين. سيدنا أنا ما كلفتك بهذه السفرة لولا إلحاح العقيد عبدالمجيد السبع آمر فوج باتوفا.
– ألم ينوه لك ما يريد؟
– قال: إن الحضور الشخصي لسيادة المطران هنا ضروري جداً، لأن أموراً مهمة تجري في المنطقة.
– ألم يخصص؟ هل لهذه الأمور علاقة بالحاج صادق برو وموضوع إعلانه الولاء؟
– قال: لها علاقة بمسألة الهدنة والمفاوضات بين الحكومة والمتمردين.
– إنها أهم مما تصورت، أبو محمد، آمل أن يجعلني الله أداة خير، لكني أسمع أن الطريق محفوفة بالمخاطر، وأن مفارز الپارتيين تجوب المنطقة ليلاً.
– الطريق مطهرة منهم ثم أنتم ستسافرون أثناء النهار ولأنك رجل دين وسلام لا أحد سيعترضك.
– أبو محمد، عندما أعود سنحتفي بنجاح مساعينا وسنفتح زجاجة الخمر المعتق التي أهداها لي رئيس الدير!
– سيدنا، سنحتفي بعد ذلك عندي في البيت، فقد إبتعت قنينة ويسكي من بغداد لهذا الغرض، أنا أعرف أنتم الذين أمضيتم وقتاً طويلاً في أمريكا تحبون الويسكي!
بعد أن غادر الضابطان دار المطرانية، دخل الخوري صومعته ليدون في دفتر مذكراته ما يلي:

«بعد الروية والتفكير وجد سيادته أن لا بُدّ من الذهاب وإن كان الطريق محفوفاً بالأخطار. وإن هذا يقتضي السفر من زاخو الى باتوفا ومنها الى محل آخر لا نعلم قربه أو بعده وفي منطقة لا تسيطر عليها الحكومة ولا على طريق مواصلاتها. فلقد تعسكر الفوج الثاني في قرية ئاڤگەنى بإمرة العقيد ميخائيل بدرية، والفوج الآخر خيّم في باتوفا، والمواصلات تكاد تكون مقطوعة بينهما.

ترى ما الذي دفع سيادة المطران توما ريس بالمجازفة بروحه وبمن معه؟ وهم الخوري والشماس يونان والسائق محمود. الدافع لم يكن غير الصالح العام، فالمنطقة سائرة الى دمار محتوم. القرى تحرق وتنهب والأرواح تزهق والحكومة بطائراتها تقصف وتأتي على المذنب والبريء. والموالون (الچتا) يعيثون بإسم الحكومة خراباً ويزرعون كجيش من الهمج تماماً لا بل أسوأ منهم الموت والحرق والدمار حيثما حلوا ولا يحفظون لأحد كرامة أو حصانة غايتهم النهب والسلب.

الپارتيون قوم فدائيون، مستميتون، بسلاء، لا يهابون الموت والجوع، يطالبون بحقوقهم وهي التساوي مع العرب في كل شيء. وربما بالغوا في هذه الحقوق لحد المطالبة بالإستقلال. منهم من يدعي أن غايتهم ليست الإنفصال عن العراق ومنهم من يظهر نواياه سافرة ويريد لكردستان الإستقلال الكامل التام الناجز، وحتى لا يرضى بحل وسط كالإتحاد الفدرالي.

كان لا بُدّ من هذه المجازفة، وإن كلفت المطرانية كثيراً، وكانت خير طريقة لإثبات ولاء المسيحيين في زاخو – وسيادته كممثل عنهم – للحكومة. وأصبح الموقف محرجاً إذ أن الحكومة تلح شديداً على أبناء الشعب بأن يؤيدوها فعلاً وعملاً لا قولاً ووعداً، حتى الموقف الحيادي هو دليل على الخيانة ومناهضة الحكومة».

3

المهمة الصعبة

في الثانية بعد الظهر كانت سيارة تاكسي تتوقف عند الباب الرئيسي للمطرانية، ولم يتوان الخادم سطيفو والسائق زكريا في التعاون على تحميل حقائب المطران والخوري، لم تكن كثيرة أو ثقيلة لأن المسافرين كانا على ثقة بأنهما سيعودان بعد يومين أو ثلاثة من بدء السفرة. فالحقيبة الأولى للمطران إحتوت ملابسه الداخلية، أما الثانية فإحتوت على الحلة التي يرتديها المطران أثناء أداء خدمة القداس وبجانبها صفت الكأس والأواني المقدّسة والتاج والصولجان الذي يرمز الى أن المطران هو راعي الأبرشية ومدبرها الروحي.

وعند الباب كان الخدم سطيفو والشماس دنحا وجماعة من النسوة والراهبات وبعض الصبيان يلوحون لسيادته والخوري وهما داخل التاكسي ويتمنون لهما سفرة سعيدة وعودة ميمونة قريبة.

تحركت السيارة التي وفرها معسكر الفوج الأول وإنطلقت تشق سوق زاخو المكتظ بالمارة والسيارات، بعض المارة لمحوا سيادته في المقعد الخلفي وتساءلوا فيما بينهم عن الجهة التي يشخص اليها المطران والخوري معاً.

بعضهم قال إنهما متوجهان الى عەباسيک حيث يجري اليوم مساء حفل زواج والمطران مدعو اليه ليعقده ويباركه، آخرون سمعوا من سائق التاكسي أنهم سيذهبون الى قرية برسڤێ لحل نزاع عشائري.

لم تتوقف السيارة في عەباسيک ولا في هيزاوا ولا دارهوزان فالمطران والخوري على عجلة ليصلا الى معسكر باتوفا قبل إنتهاء الدوام الرسمي.

بعد ساعة مضنية من السير في الطريق المعبد الذي لم يخل من الحفر التي

أحدثتها الشتاء الماضي الدبابات وشاحنات الزيل العسكرية التي تتنقل بين معسكرات زاخو وئاڤگەنى وباتوفا وصل الوفد الى قرية برسڤێ وأمام دار السيد عبدالأحد مشوّ كبير القرية وشيخها. فإستقبلهم عبدالأحد بحفاوة بالغة وهو يدعوهم الى الدار قائلاً:

– جئتم أهلاً ووطئتم سهلاً، سيدنا! يا للمفاجأة السارة المبهجة! ما هذه الزيارة الميمونة غير المرتقبة وغير المعلنة، كان بوسع الخوري أن يخطرنا قبل يوم لنستقبلكم بما يليق ومقامكم السامي!

وتجمهر الناس في باحة الدار مرحبين مقبِّلين يد المطران الذي كان يبتسم للصغار ودموع الفرحة تنهمر من عينيه، ثم رفع يديه الى الأعلى يباركهم:

– أستمطِرُ عليكم بركة الرب، يا أولادي، إني أدعو لكم دوماً في صلواتي ليحفظكم الله من أي سوء لاسيما في هذه الأيام العصيبة التي تمرون فيها حيث النيران تتجه نحوكم من كل حدب وصوب. إن ملجأنا الأول والأخير هو الله. لا تتوانوا في صلواتكم ليجنّبكم الرب المخاطر بشفاعة العذراء مريم!

فأجابه الشعب كله بصوت واحد «آمين».

ثم إختلى بعبدالأحد قائلاً:

– أنا وأبونا الخوري ذاهبان الى معسكر باتوفا للقاء آمر الفوج وسنعود اليكم بعد يوم أو يومين لأمضي ليلة بينكم.

– هل هناك ما يقضي مرافقتي لكما؟ إذا رغبت فإني سأتهيأ خلال دقائق.

وهمّ عبدالأحد بالذهاب الى الداخل لإعداد نفسه قائلاً:

– سأكون جاهزاً بعد دقائق، كلما أحتاجه هو إرتداء الشال والشەپک، سيدنا!

أومأ اليه المطران بعدم تكليف نفسه مردفاً:

– إبني، هناك إحتمال قوي أن نغادر باتوفا الى قرية بعيدة داخل منطقة الپارتيين غداً، ولا أجد حاجة في مرافقتك لنا خصوصاً وان الشبهات تحوم فوق رأسك بمساعدتهم وإيوائهم وإني لا أود منح الحكومة مزيداً من الحجج ضدك.

– مناطق الپارتيين؟ أتقصد المناطق المحررة؟ لماذا؟

– نعم، المناطق المحررة، كما تسمونها، فنحن لانستطيع تسميتها كذلك، عندنا يسمونها مناطق العصاة أو المخربين!

– جعله الله خيراً، ما هو السبب؟ هل هناك ما يجري وراء الكواليس من مفاوضات أو وساطات؟

– أجل الحكومة كلفتني بمهمة الذهاب عند صادقي برو للوساطة بينه وبينها!

– هذه مهمة صعبة وخطرة، ياسيدنا، ولا أظن أن صادقي برو سيثق بالحكومة، فبالأمس قتلت هذه الحكومة ابنه مسعود لدى تقدمها في اطراف باتوفا. أتراه ينسى ذلك ويغفر لقتلة ابنه ويجالسهم ليفاوضهم؟ والله لا أجد نفعاً بل ضرراً في مفاوضته لهم!

– لقد وعدت سيادة القائمقام وآمر الفوج القيام بهذه المهمة الإنسانية وسنرى ما سيحصل متوكلين على الله.

– سيدنا، هذه الحكومة شريرة وسلطاتنا المحلية شرّ منها وأرى أنها خطة للإيقا ع بك وإتهامك بالتعاون مع الپارتيين نصيحتي المتواضعة هي أن لا تذهب الى أبعد من باتوفا!

– سأذهب الى باتوفا ولعل الرب يجد لي مخرجاً من هذا المأزق، فأنا واثق بأنه سينقذني في اللحظة الأخيرة.

– سيدنا، أنا إبنك المطيع، أرجوك أن تسمع كلامي، لأني أشم رائحة الغدر والخيانة، إنها مصيدة نصبها المرتزقة لك للإيقا ع بك كما تصيدوا للأنبا روفائيل شوريز رئيس الأديرة، ألا تتذكر قضيته كيف أوقعوا به وحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة في سجون الحكومة وهو بريء!

– أتراني أقف صامتاً متفرجاً على ما يجري من قتل ونهب وتشريد لفقراء المنطقة، ألا يكفي ما ذاقوه؟

– سيدنا، أنا لا أقف حائلاً بينك وبين صنع الخير، لكني أرى أن حاجي آغا وراء هذه المؤامرة التي تستهدف حياتك!

– حاجي آغا؟ وماشأني وشأنه؟ إبني، لا ترم سهماً يعسر عليك ردّهُ!

– سيدنا، عد الى الوراء قليلاً، الى أيام الملكية، اتتذكر الحملات الانتخابية في منطقة زاخو؟ كيف إن ديندار بك إبن حازم بك وحاجي آغا كانا المرشحين المتنافسين لمنصب النائب عن القضاء. وكيف ان المطرانية كانت منحازة الى ديندار بك، وكيف ان سلفك المرحوم المطران يوحنا نيسان عمم على كنائس القضاء منح ثقتهم لديندار. إن حاجي آغا ما زال غاضباً متحاملاً على المطرانية لموقفها ذلك منه.

– ابني، ذلك زمان الملكية وها نحن في العهد الجمهوري! فاذا كان حاجي آغا يمثل مصالح زاخو أكثر من ديندار بك فنحن على إستعداد لمنح أصواتنا له في الإنتخابات القادمة.

– الإنتخابات القادمة؟ وهل ستكون إنتخابات!

– ولم لا؟ إذا إستقرت الأوضاع ومنحت الحكومة الكُرد حقوقهم. الزعيم دائماً يؤكد على أن فترة بقائه في الحكم فترة إنتقالية مؤقتة وستعود المياه الى مجاريها بعد إنتهاء الحرب.

– سيدنا، لا أرى كيف السبيل الى تطبيق مثاليات الزعيم على هذه الأحزاب. فلا هو يعرف الديمقراطية ولا هي، إنها أفسدت البلد بتكتلاتها وولاءاتها، فالقوميون موالون لمصر، والشيوعيون موالون لموسكو والكُرد موالون لحركتهم، لاأجد قاسماً مشتركاً يجمعهم حول مصلحة الوطن. لقد أصبح الاخوة في البيت الواحد منقسمون على بعضهم. إن أحزابنا تسعى للسيطرة على الحكم والإنفراد به وحرمان غيرهم من المشاركة تماماً كالطفل الأناني الذي يحتكر اللعبة ويحرم الأطفال الآخرين مشاركته. أنا أرى الأوضاع تسير من سيء الى أسوأ، وسيرى مَن يبقى منا على قيد الحياة.

فجأة صدح بوق اللاندروڤر فخرج المطران يرافقه عبدالأحد وبادر السائقان بنقل حقائب المطران والخوري اليها، ثم جاء سائق اللاندروڤر الى الخوري يخبره:

– أبونا، أنا والسيارة جاهزان بإنتظاركم.

– محمود، سنجلس أنا وسيادة المطران معك في المقعد الأمامي، وليجلس

الشماس يونان في المؤخرة مع الحقائب.

– السيارة واسعة، ولكنها مع الأسف مكشوفة لا تليق بتنقلات مطران أفندي في طرق ترابية. ما العمل فسيارات الركاب لا تعمل على هذا الخط.

– كيف نعالج مسألة الغبار، يا محمود؟

– أبونا سأسوقها بتوأدة لئلا تثير غباراً كثيراً.

– جيد، بارك الله فيك!

ركب الخوري وأعقبه المطران، وقفز الشماس يونان الى المؤخرة مع الحقائب ثم صعد السائق محمود، وهو يقول:

– يا الله، أهلاً بكم مطران أفندي، الآن أعرف ان سيارتي مباركة ومؤمّنة لأن فيها رجال دين أتقياء.

– كم هي أجرتك يا محمود؟

– أبونا الأجرة مدفوعة، دفعها الفوج، قيل لي أن لا آخذ منكم فلساً واحداً، وأن أكون بخدمتكم حتى نصل حيث ينتهي طريق السيارات.

تخافت المطران في أذن الخوري قائلاً بالكلدانية:

– اوّا گاشوشا ايلي. زوون ولا مزبنت (وترجمتها: هذا مُخبر إشترِ ولاتبِعْ، أي كن على حذرٍ منه).

فإلتفت الخوري الى الشماس ينبهه:

– أوا گاشوشا إيلي. شمع سگّي وملل... (هذا جاسوس اسمع ولا تتكلم كثيراً).

ساد صمت مطبق بينما السيارة تتهادى على الطريق، والسائق يحاول تجنب الحفر بعضها بلغ من السعة والعمق بحيث لا يمكنه تجنبها مهما حاول فتعلو اللاندروڤر وتهبط بمن فيها بينما صيحات «يا الله... يا الله» تتعالى وترتفع. بعد نصف ساعة من السير المضني وصلوا أول معسكر للجيش في ئاڤگەنى وإستدار السائق بالسيارة أمام بابه النظامي، وأوقف المحرك ثم نزل ليسأل من حراس السيطرة:

– أبو خليل، معي وفد برئاسة مطران زاخو يود مقابلة الآمر.

– مطران زاخو؟ إنتظر ريثما أعطيك الجواب.

كانت بعض الشاحنات العسكرية المحملة بالأرزاق في طريق إجتيازها الباب النظامي الى حانوت المعسكر وكلها خضع للتفتيش الدقيق مما أطال فترة إنتظار الوفد داخل السيارة.

لم تمر سوى دقائق حتى جاء جواب الآمر. فأخلى عريف السيطرة سبيلهم مشيراً للسائق:

– خيمة الآمر هي الثالثة على اليمين.

وهمَّ السائق بقيادة اللاندروڤر داخل المعسكر إلاّ أن العريف منعه قائلاً:

– هذا معسكر جيش وليس خان اشغان، يمنع دخول السيارات المدنية اليه.

ودخل الإثنان في مشادة كلامية، كانت الغلبة فيها للعريف طبعاً، فالجيش في حالة إنذار قصوى، وهذا المعسكر بالذات موقع أمامي لصد الهجمات المتوالية للپيشمەرگە في المنطقة.

تجمهر الجنود حول السيارة وكأنهم يشاهدون أناساً جاؤوا من عالم ثان، والحق معهم، لأن بعضهم، سيما أهل الجنوب، لم تقع أعينهم على مطران البتة وأخذوا يتساءلون عما تنطوري عليه زيارة هذا الوفد الغريب الأطوار: رجال دين في مجاهل هذه الجبال. إنها حالة فريدة!

أخذ الوفد يتخطى نحو خيمة الآمر يرافقه ضابط برتبة ملازم أول بينما يلاحقه جنود دفعهم حب الإستطلاع ليروا المطران بعينيه الزرقاوين وشعر رأسه الأبيض الفضي وعمامته الصقيلة وجبته الفضفاضة وعكازته الفضية والصليب الذهبي الذي يتدلى من عنقه بين الأشرطة الحمراء والخوري الشاب بشعره المدهون يبتسمان لهم فظن بعضهم أنهما خبيران أجنبيان قدما للإطلاع على أحوال المنطقة متنكرين، وإستغرب بعضهم الآخر من انهما يجيدان العربية والكُردية!

وعند باب الخيمة الكبيرة كان العقيد ميخائيل بدرية مع ضابط إستخبارات المعسكر بإنتظار الوفد، فغمرهم العقيد بعبارات السلام والترحاب وأخذ يعتذر للمطران عن وضعهم المزري قائلاً:

– ارجو المعذرة، سيدنا، نحن في ظروف حرب، والعصاة يهاجموننا ليل نهار لهم مسؤول شرس يقال أن إسمه عيسى سوار وهو بارزاني متهم بقتل احمد آغا زيباري امام متصرفية الموصل يعاونه اثنان من العصاة أحدهما إسمه علي هالو وآخر يدعى سليمان سندي وهما اشرس منه لا يتركون لنا فرصة للنوم او الراحة! وفي الآونة الأخيرة يدور الكلام عن نجم صاعد بين العصاة، اسمه عبدالرحمن دينو ويقال انه يقود عصابة كوماندو، وهو يفوقهم جميعاً شراسة.

كانت خيمة واسعة هندية الصنع تستوردها الحكومة خصيصاً للجيش العراقي. يمر أمامها شارع ترابي محدد الجانبين بحجارة بيض مرصوفة بإعتناء هندسي فتبدو خطوطاً مستقيمة، أعمدتها من قصب الخيزران القوي الغليظ وحبالها بيضاء جديدة وأوتادها من الحديد كأنها وصلت لتوها من المعمل. أرضية الخيمة تراب رطب لأنه يرش بالماء يومياً مرات عديدة لمنع تصاعد الغبار وإزالة جفاف جوها. وصورة الزعيم عبدالكريم قاسم ببزته العسكرية بإعتباره القائد العام للقوات المسلحة مؤطرة ومعلقة على العماد الأخير في الصدر تقابلها على الجانب الآخر صورة أخرى لشعار الجمهورية.

إلتفت اليه المطران مجيباً:

– نحن نعلم إنكم في وضع إستثنائي ونقدر ظروفكم وإن شاء الله ستنتهي الحرب عما قريب.

– سيدنا، هل تعرفون شيئاً نجهله؟ ربما أنتم أهل المدن وخصوصاً رجال الدين مطلعون على مستجدات الأمور أكثر منا نحن الضائعين في مجاهل هذه الجبال؟

– إني دائماً أدعو الله لكم لكي يحفظكم ويحفظ رؤساءنا ويرشدهم الى طريق الحق والصواب، وإني واثق من أن الله سيُنهي هذه الأوضاع الشاذة قريباً، ويعود شعبنا العراقي بكافة أقوامه وأديانه الى الأخوة والمحبة!

– سيدنا، سمعت عنكم الكثير فجئت الى المطرانية لأزوركم قبل شهر، رحب بي أبونا الخوري. وعلمت انكم كنتم في بغداد بمهمة رسمية، هل

لقدومكم لزيارتنا علاقة بتلك المهمة؟ ما أريد أن أقوله هو هل انكم تحملون الينا بشائر خير بإنتهاء هذه الحرب القذرة؟

– كان سفري الى بغداد لغرض حضور السونهادوس المقدس الذي يحضره كل أساقفة العراق، ويعقد هذا الإجتماع كل ستة أشهر بشكل دوري سنوياً.

– ما تعنونه، انه لم يكن لغرض بحث هذه الحرب.

– لا، البتة، نحن رجال الدين محظور علينا التدخل في السياسة وأمور الدولة إلاّ بقدر تعلق الأمر برعايانا.

– إذن أنتم قادمون لزيارة رعاياكم في منطقتنا هذه؟

عند هذا أيقن المطران انه في واد والعقيد في واد آخر فأومأ الى أنه يود اللقاء به لوحده، فرافقه العقيد خارج الخيمة وأخذا يتخطيان، وبعد أن إبتعدا قليلاً، قال المطران:

– جواباً على سؤالك أنا قادم الى هنا بمهمة!

إزداد شوق العقيد وتلهف لسماع المزيد سائلاً:

– سيدنا، سأعمل ما في وسعي لإنجاح مهمتكم؟ سنكون أنا وهذا الفوج في خدمتكم، هل لها علاقة بإنهاء الحرب؟

– نعم، لها علاقة!

طار العقيد فرحاً وأخذ يسبح في الخيال، خيال العودة الى بيته وعياله فقد غاب عنهم منذ ستة أشهر ولم يرغب في المزيد من الأسئلة لئلا يُحرج المطران، فها قد نال بغيته.

وقف الرجلان على مرتفع وهما ينظران الى جنوب المعسكر وأمامهما نهر الخابور يتلوى في منطقة ده شت الگولي ينساب بهدوء كما إنساب لآلاف السنين، وعلى ضفافه تنتشر قرى صغيرة، فتلك پيرەكا وبێگۆڤا وسەلكا زێرێزەر على الشاطيء والى الداخل وعلى مسافات متباينة تنتشر ليڤو وناڤكەندالا ومێرگە سۆر قرى المرگهية والى الشرق حيث نخر النهر مجراه بمرور مئات السنين في إنعطافة تشبه نصف القوس تنتشر القرى الأخيرة لمنطقة الگولي تبدأ بعدها وعلى الطرف الآخر من النهر السفوح الجنوبية لجبل

مەتينا الذي تلتصق قدماته، شرقي بامرني، أرادن قريته التي ولد وترعرع فيها تظلله الغيوم الكثيفة فيبدو داكناً. حاول المطران ان ينظر شرقاً ليرى بەرواري بالا التي سمع عنها كثيراً لكنه لم يتمكن لأن مەتينا كان يحجبها. لم يشأ النظر الى الخلف حيث تتعلق بين السماء والأرض قرى كيلەسپي وئاڤگەنى العليا وأخرى عديدة على سفح الجبل لئلا يطيل على مضيفه، فإستدار بحركة عفوية يقول:

– أنا في طريقي الى معسكر باتوفا، وسأزورك ثانية بعد يومين أو ثلاثة لدى عودتي.

– سيدنا، أنا مقبل على إجازة. سأقوم بتأجيلها ريثما تعود فنلتقي، لنطلع على النتائج المبهجة لمهمتك.

كان الخوري وضابط إستخبارات المعسكر ينتظران عودتهما على أحرّ من الجمر. فالخوري يعلم ما يجري بين المطران والآمر ولكن الضابط ظل يبعث عملاءه اليهما للتلصص وإستراق السمع حاملين الماء والشاي علّهم يلتقطون له كلمة أو عبارة ليستدل منها على ما يجري بين الرجلين وبقي مقطب الجبين كأنه متوجس شراً.

بعد هنيهة عاد الرجلان الى الخيمة وكأنهما إتفقا على شيء مبهم، مما زاد في قلق ضابط الإستخبارات وظل الآمر يردد للمطران:

– سأنتظرك، سيدنا.

والمطران يكتفي بقوله:

– إنها ستنتهي بإذن الله!

ودّع الآمر ضيفه المطران وداعاً حاراً وتمنى لمهمته التي لم يفهم منها الشيء الكثير، النجاح وأخذ يمشي معهم الى الباب النظامي للمعسكر والجنود يتلقونهم بالتحية العسكرية.

إستقل الخوري والمطران السيارة بينما الآمر يقترح:

– سيدنا إذا رغبتم، فسأرسل سيارة حماية معكم الى المعسكر القادم في مەلاعەرەب.

لكن المطران رفض بداعي ان القرية المقبلة قريبة.

إتجهوا صوب باتوفا وبعد دقائق قليلة أصبحوا قبالة قرية مەلاعەرەب وفيها حامية أخرى للجيش.

كان الخوري يدون في دفتر مذكراته ما يلي:

«يا للقرية المسكينة، أركام سوداء وجدران أحرقتها اللُّهُب وبيوت لم يبق منها سوى الأطلال تشتت أهلها ولا أحد يدري اين قذفهم الموج، بعض الآنية مبعثرة هنا وهناك، كراريس وأوراق يتلاعب بها الهواء».

وكان على العين التي يمر قربها الشارع شلة من الجنود جاؤوا يملون صهاريجهم ماءً ليزودوا الجيش في ئاڤگەنى، فصاح أحدهم:

– الى أين أنتم ذاهبون؟

– الى باتوفا.

– الى أين؟

– الى باتوفا.

–أحقاً ما تقولون؟

وعندما قرأ الريب على وجوههم إستدرك وقال:

– اذهبوا، اذهبوا، الله معكم لا أعتقد أن هناك شيئاً...

إنهالت علامات التعجب والإستفهام على الخوري، فإستدار نحو المطران يسأله:

– انهم يستغربون أمر ذهابنا!

بقي المطران صامتاً وإستحوذت عليه غفوة خفيفة.

مروا بمەلاعەرەب مرور الكرام دون توقف غير الذي على عين الماء.

وأخذوا يقطعون المسافات بين الأحراش والتلال والأشجار الكثيفة أحياناً، وقد ران السكوت على مَن في السيارة. وكل يتطلع يمنة ويسرة... والسائق يستحثها واوغلوا بعيداً لا إنس ولا بشر على الطريق، هذه قرية سێكوتكێ اتت عليها النيران وهجرها أهلوها... منازل مهجورة هنا، قصر هناك... وأخيراً لمحوا خيماً بيض على رابية، عندئذ عاد الإطمئنان الى قلوبهم. فلقد وصلوا المعسكر... هذه باتوفا!

توجهوا الى المعسكر فوراً، وآمره عبدالمجيد السبع لم يكن قد أعدّ شيئاً

لإستقبالهم فحدث لهم فيه ما جرى في معسكر ئاڤگەنى من مشادات مع الحراس على الباب النظامي، فالسائق معتد بالوفد يريد إختراق المدخل بسيارته وآمر السيطرة يمانعه. حتى أرسلوا من يخبر آمر المعسكر.

إستقبلهم آمر الفوج بشيء من الفتور وإن كانت الدهشة بادية على ملامحه إذ ولا ريب لم يكن يتوقع هذه المغامرة منهم فبعد الترحاب البارد أبقاهم في الخيمة وراح يرسل في إثر الآغوات الذين لهم مقراتهم الخاصة بالقرب من المعسكر، في بيوت أهالي القرية الهاربين من بطش الحكومة.

أسرع زعماء الچتا الى خيمة الآمر وهم محسن بەرواري وعبداللطيف زيباري وغيرهما من أغوات الدرجة الثانية....

بدأ المطران الجلسة بقوله:

– أرسلني سيادة القائمقام الى هنا لكي نتباحث في أمر صادقي برو وطلبه إعلان ولائه للدولة، فكما تعرفون، أنا رجل دين لست مطلعاً على خفايا الأمور السياسية كما أنتم مطلعون، فهل لكم من مقترحات حول دوري في هذا الشأن؟

نظر الجالسون يميناً وشمالاً وكأنهم لا يعرفون من هو القائمقام، فالوضع العسكري السائد في المنطقة قد منحهم سلطات إستثنائية واسعة وهم لا يعيرون إهتماماً بالغاً بالسلطات المدنية وكأنها تابعة لهم. وأخذوا يتخافتون فيما بينهم غير متوقعين جسارة المطران في مناقشتهم في هذا المجلس العسكري وظنوا أنهم سيقولون له إننا نرسلك بمثل هذه المهمة وليس عليك إلاّ التنفيذ. بدت علائم الإستياء على ملامح آمر الفوج فإنبرى يترجم تساؤلاتهم للمطران:

– سيادة المطران، نحن الذين رشحناك لهذه المهمة، ودور القائمقام في هذا الأمر ثانوي، لم يكن إلاّ لتسهيل سفرك الى هنا، فنحن جميعاً غير قادرين على القيام بالوفادة. وبناءً على المصلحة العامة لا خيار لك إلا خيار الإمتثال.

تكهرب الجو لحظة، واخذ الآغوات يحدقون في وجه المطران بشيء من التحدي ليروا ما سيكون رد فعله، فإلتفت الى الآمر في حيرة من أمره

متسائلاً:

– قلتم إنكم إستلمتم رسالة من صادقي برو بهذا الشأن، هل لي أن أطلع عليها؟

أخذ الآمر يتذمر:

– هذا القائمقام يمثل الغباء بعينه. أفهمته أن يشرح للمطران دوره في المهمة.

إلتفت اليه المطران مستفهماً:

– اعلمني سيادة القائمقام ان مفاوضات تجري بينكم وبين الحاج صادقي برو ترغبون أن ألعب دور الوسيط فيها، هذا كل ما أعرفه، ولكي أقوم بدور الوسيط على أحسن وجه، أرى ان احاط علماً بأوليات المسألة.

كانت عبارة «سيادة القائمقام» التي يكثر المطران من إستعمالها تثير ثائرة الآمر أكثر من أى شيء آخر وتزيد من حقده على القائمقام بلغت درجة أخذ معها يطلق بعض الكلمات النابية يصفه بها، فأرسل أحد ضباط القلم السري لكي يبحث عن الرسالة في درج مكتبه الخاص. أتى بها مسرعاً وفض الآمر المظروف وناولها المطران قائلاً:

– تفضل، سيدنا، إقرأها بنفسك. حتى تصدقنا!

قرأ المطران بصوت مسموع نص الرسالة:

السيد آمر فوج باتوفا المحترم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

منذ إندلاع الحرب في أيلول الماضي في منطقتنا والجيش العراقي الذي واجبه الأول الدفاع عن الجمهورية وصيانة الوحدة الوطنية يقوم بحركات عسكرية في زاخو والمناطق الأخرى كلها إستفزاز لايخدم المصلحة العامة.

إن حرق القرى والأرياف وقصفها بالطائرات ودخول الدبابات اليها وقتل الأبرياء من أبناء شعبنا ليس عملاً وطنياً. كما ان احراق المحاصيل الزراعية للفلاحين الفقراء عمل مشين لايتفق وشيم القوات المسلحة.

اني وجميع أهالي منطقتي الآمنين ندين أعمال العنف هذه ونطالب السلطات بوضع حد لها فوراً حقناً للمزيد من دماء الأبرياء من أبناء الشعب. وإذا كنتم تقومون بالعمليات العسكرية ملاحقين البارتيين، فأنتم أدرى مني أين هم البارتيون، لماذا لاتتعقبونهم بل تلاحقون الفلاحين العزل وتقتلون النساء والأطفال والشيوخ والشباب كما قتلتم إبني مسعود بالقرب من باتوفا حينما كان يقوم بعمله وبدون سبب. وإذا تفضلتهم بمناقشة هذا الموضوع معي فإني على إستعداد تام لشرح وجهة نظري لكم لكني أخشي القدوم اليكم لأنني لا أثق بالحكومة التي قتلت الأبرياء وأحرقت رزقهم فلماذا لاترسلون أنتم وفداً لهذا الغرض لكي نضع حداً لأعمال العنف هذه وننقذ المنطقة من الدمار الشامل.

عاشت الجمهورية العراقية،

عاشت الأخوة العربية الكُردية.

والسلام عليكم

المخلص للوطن صادقي برو

طوى المطران الرسالة، ثم فتحها ثانية ليدقق في الخط لأنه كان مألوفاً للوهلة الأولى، وتأكد من أنه لسيدا صالح، فالخط خطه والأسلوب أسلوبه، ثم طواها ثانية وأعطاها للآمر قائلاً:

– هذه الرسالة ليس فيها ما يدل على على أن الرجل ينوي تسليم نفسه للحكومة، فولاءه معلن لا ريب فيه، ويبدو أن ولاءه للجمهورية متواصل لم ينقطع، إنما الرجل يبحث عن مخرج لهذه المحنة التي ألمت بالمنطقة كلها، انه رجل مسالم يريد العيش بأمن وسلام مع فلاحيه، يريد أن تنعم هذه القرى بأثمارهم ومحاصيلهم ويطلب منكم عدم إحراقها والإعتداء على الناس الأبرياء. هل إستكثرتم عليه طلبه!

تكهرب الجو ثانية كأن صاعقة سقطت بالقرب منهم لجسارة المطران وجرأته. وكاد الخوري ينفجر وهو يحتدم في داخله لسذاجة المطران وعدم

لباقته.

فإنبرى محسن بەرواري يؤوِّل الرسالة هذا التأويل:

– مطران أفندي، أنا أعرف صادقي برو حق المعرفة شخصياً، إن العصيان على الدولة ديدنه منذ زمن الإنكليز. وغايته أن يذهب شخص مثلك للقائه حفظاً لماء وجهه فهو متورط مع العصاة، انه عاقد العزم على تسليم نفسه للحكومة لكنه لا يعرف كيف السبيل.

أما عبداللطيف زيباري فكان يشدد على موقفه المتصلب معلناً:

– إذا تحققت الوساطة، وسلم صادقي برو نفسه فإن منطقة الگولي برمتها وبعدها السندي ستعلن الولاء وسنتقدم سريعاً نحو بەرواري بالا في غضون أيام لنطهرها من رجسهم، عندئذ أين سيتحصن العصاة، أفي جهنم؟

أما العقيد فكان يتفق مع الجميع لاسيما مع آخر متكلم، ويصر على إرسال المطران فوراً الى معاقل صادقي برو دون ابطاء، مؤكداً على أن لديه خدعة عسكرية لايود الإفصاح عنها للإلتفاف على بەرواري بالا.

ودار نقاش طويل حول موضوع الرسالة كلٌّ يجتهد في شرحها وتأويلها، وخاضوا مع المطران موضوع الوساطة وكيف أن الحاج صادقي برو أوفد الرسالة يطلب فيها طريقة للتفاهم والسلم. وقرأ الخوري الرسالة مثنى وثلاث وإذا بها مبهمة لا تعني ما حمّلوها هم من آمال واسعة.

وأخيراً قرّ قرارهم ان يذهب المطران الى مواجهته. غير ان الخوري إعترض على ذلك بقوله:

– إن سيادة المطران لا صداقة له مع الحاج صادقي برو ولا معرفة سابقة، ثم ليس من الصواب ان يتجه نحوه قبل الإستئذان وذلك بأن يرسل احداً يخبره بمقدمه واسباب مقابلته.

ومضى الوقت في جدل عقيم، فالعقيد لا يتزحزح عن وجهة نظره والمطران والخوري لا يستصوبان رأيه ولاحظا تأثر العقيد بآراء محسن بەرواري.

وأخيراً رضخ المطران وأملى سيادته على الخوري رسالة الى صادقي برو، هذا نصها:

الأخ الكريم صادقي برو المحترم

تحية طيبة وبعد،

قرأت رسالتك الرقيقة التي بعثتها الى آمر معسكر باتوفا وفهمت فحواها، إنها تقطر حكمة وشعوراً بالمسؤولية تجاه أبناء المنطقة. اني اشجعك أيها الأخ الكريم على هذا المسعى وأشد على يدك ويد كل الغيارى من أبناء الشعب للقيام بما هو لازم لحقن الدماء وأُكبِّرُ فيك هذا الإخلاص والتفاني من أجل إنقاذ الفلاحين ابناء المنطقة من الخراب والدمار.

وأجدها مناسبة لألبي عرضك الكريم في ان يوفد احد للتشاور معك حول مستقبل المنطقة. فقد وقع إختيار الحكومة بمن فيها الآمر والقائمقام على حقارتي أنا العبد الذليل لأقوم معك بهذه المهمة الوطنية والانسانية لعل خلاص هذه المنطقة الجميلة من الدمار والخراب والقتل والتشريد يأتي على يدينا. ان هذا العرض شأن رسمي بإسم الحكومة.

كما أنتهز الفرصة لأواسيك، أيها الأخ الكريم على مصابك الجلل بفقدانك ابنك مسعود الذي طالما سمعت عنه الشهامات والمروءات، اسكنه الله فسيح جناته مع الأبرار والصالحين.

اكررها ثانية، ايها الأخ الكريم، ان قدومي اليك في المكان والزمان اللذين تحددهما انت رهن بموافقتك.

وسأبقى لدى الآمر حتى يأتي جوابك.

توما ريس، مطران زاخو

ولكن لم يكن مَن يغامر بحمل الرسالة، فتنرفز العقيد، وقام من مقعده وقد بلغ منه الغضب مبلغاً محاولاً نسف ما إتفقوا عليه طيلة الساعات المنصرمة قائلاً:

– سيدنا، لماذا لا تعودون الى حيث أتيتم، ان هذه المسألة لا يمكن حلها إلاّ بالقوة العسكرية. وإني عاقد العزم على حلها بطريقتي.

– سيادة الآمر كيف نعود والساعة تشير الى الحادية عشرة ليلاً؟ من

يضمن سلامة عودتنا الى زاخو هذه الليلة؟

– سنحاول إيصالكم ولو على ظهر دبابة ان إقتضى الأمر!

إستمهله المطران محاولاً إعادة الهدوء الى أعصابه:

– أبو حامد، من أجل المصلحة العامة سأحاول الذهاب غداً وليكن ما يكون.

إرفضَّ الإجتماع الرسمي، وسارع الچتا كل الى مأواه في مقره ظناً أن الامر هو الذي سيتكفل بذلك دون أن يعبأوا بضيفيهم المطران والخوري. لكن العقيد لم يكن قد هيأ شيئاً لإستضافتهما، ففضلا الذهاب الى القرية للمبيت معتقدين أنها مأهولة. أرسل الآمر أحد جنوده ليحمل فانوساً نفطياً لينير لهما الدرب، ولدى مغادرتهما كان المطران يقول للآمر:

– لم يبق من الليل سوى ساعات قلائل بعدها سنكون عندكم صباحاً نعدُّ العدة للسفر.

وودعهم الآمر مردداً:

– في أمان الله، تصبحون على خير، لا تنسوا موعدنا في المعسكر الساعة السادسة والنصف صباحاً.

وأخذ الثلاثة يتبعهم الشماس يونان يسيرن على ضوء الفانوس في أزقة القرية الخالية الخاوية كالشحاذين يبحثون عن مأوى لبضع ساعات من النوم.

سأل الخوري الجندي:

– أتعرف أحداً يأوينا هذه الليلة؟

أجابه الجندي بإستغراب:

– وهل من أحد؟ ألا تعرف أن القرية مهجورة؟

– الى أين إذن نحن ذاهبون؟

– الى المستوصف.

– ومَن فيه؟

– لا أحد فيه، وقد إتخذناه مأوىً لأقارب الجنود القادمين للزيارة.

عاد الجندي الى المعسكر بعد أن ترك الثلاثة في المستوصف يتدبرون أمرهم وهم ينظرون الى الزجاج المحطم والنوافذ المقلوعة والأبواب المكسرة

والجدران الملوثة بالغبار وآثار النار.

وطلع القمر وهما يبحثان بشأن ماجرى في المعسكر، وقد تعكر الجو بين الرجلين، فالخوري لايستصوب السفر، والمطران تسرّع في القبول.

إفترشوا ما وقعت عليه أيديهم من بطانيات عسكرية وسخة متروكة في الغرفة، وأخذ الخوري يجول ببصره على الجدران ليرى عشرات العبارات المكتوبة بعضها بالطباشير وأخرى بالفحم الأسود يزيّنها قلب يخترقه سهم رُسما بشكل بدائي تعبر عن مشاعر الأقارب القادمين للزيارة، فهذا شاهد على حرقة قلب والد على إبنه الضائع في مجاهل هذه الجبال، وآخر لأم لوّعها بُعدُ فتاها وخوفها عليه، وثالث لزوجة طال غياب حبيبها الجندي في معسكر باتوفا.

ولم يفته أن يلاحظ أعشاش العناكب في الزوايا المظلمة من الغرفة وأجواق الصراصر تخرج من شقوق لتلج أخرى، والفئران تسرح وتمرح يلاحق بعضها بعضاً ساعية وراء رزقها، غير آبهة بمقدم النزلاء الثلاثة دون إذن أو دعوة!

وسرح الخيال بالخوري الى أعداء هذه القوارض والحشرات وطفق يفكر منطقياً وهو يقول لنفسه: إذا كانت الفريسة بهذه الوفرة فلابد من أن يكون مفترسها قريباً، وقد يكون عند قدميه أو خلف رأسه، فأداره كأنه مدفوع بحاسة سادسة وإذا بعقرب أسود كبير لا يبعد عنه إلاّ أقداماً، فنهض الى حذائه وصفعه بفردة حتى سحقه، ثم إنسل تحت بطانيته مرتجفاً وعبثاً حاول النوم وكلما راوده رعب العقرب سحب يديه وقدميه تحت الغطاء ليحميهما خشية إمتداد العقارب والأفاعي إليها.

فزّ المطران لصفع الفردة ثم أغمض عينيه، فقد أرهقه كبر سنه وعناء السفر والسهر وراح يغط في نوم عميق ينافس فيه الشماس يونان في الشخير وسكون الليل لايقطعه سوى نعيق بوم بعيد. جلس الخوري على ضوء القمر، وأخذ يدون في دفتره:

«يا للهول: القرية خربة أُحرقت فيها البيوت، ولم يدع فيها بيت لم ينهب. وحتى الدور الحكومية لم يبق فيها على شيء الموالون للحكومة يعبثون بممتلكات الدولة. أخذ البق يهاجمنا والروائح الكريهة تأخذ بخناقنا، روائح الأشلاء المتفسخة. أية مأساة هذه يا رب! لا نور ولا سرير، لا ولا قدح للماء، نمنا على البلاط، بطانية إفترشناها وأخرى لتقينا البرد، لا وسادة هناك».

4

نحو معاقل صادقي برو

الأحد ٢٧ أيار ١٩٦٢

بكَّرَ المطران في النهوض فإستيقظ في الخامسة صباحاً، وإذا ببشائر الصباح الربيعي تنذره بالموعد الذي ضربوه مع العقيد آمر الفوج. تطلع حوله فإذا بالخوري والشماس مازالا يغطان في نوم عميق، فالخوري لم ينعم بأكثر من ثلاث ساعات من النوم المتقطع. أما الشماس فقد لف رأسه بيشماغه ونام قرير العين مفسحاً لهما للتداول في أمورهما.

وعبثاً بحث المطران عند منضدة ليتخذها مذبحاً مؤقتاً يقيم عليه القداس، وأخذ يجول في الغرف حتى عثر علي صفائح معدنية فارغة يستخدمها القرويون للنفط أو لنقل الماء، فأتى بها فرحاً ونضدها وفتح حقيبة جهاز القداس وأخرج الخبز والخمر.

قعد الخوري من نومه على قرقعة الصفائح وفتح الحقائب وقد تملكه الخوف من ان اللصوص داهموهم منادياً:

– مَن أنتم؟ عماذا تبحثون؟ سطيفو مَن دخل المطرانية؟

ونهض الخوري وهو يلعن الإبليس سائلاً المطران:

– ماذا تعمل؟ أترانا تأخرنا عن الموعد؟

رد عليه المطران بهدوء:

– أتهيأ لإقامة صلاة الصباح!

فنهض الخوري وأيقظ الشماس ليشترك في الصلاة أيضاً.

وقف الخوري الى جانب المطران في قدس أقداس كاتدرائيتهم الجديدة والشماس خلفهما حتى البركة الختامية، لا نواقيس ولا أجراس ولم تكن لهما حاجة الى كتاب الطقس فقد حفظاه غيباً ولم يلبسا من حلل الكهنوت غير الهورار الذي يرمز الى أن رتبة دينية رسمية تقام. إنتهى القداس وتناول الثلاثة القربان المقدس وإختصروا في صلوات الشكر والسجود نظراً للظروف القاهرة.

تذكر المطران صيحة الخوري وإستنجاده بسطيفو فسأله ضاحكاً:

– كنت تسأل عن سطيفو قبل قليل هلاّ وجدته؟

– ظننت نفسي في المطرانية وفكرت وأنا بين النوم واليقظة ان لصوصاً داهمونا فإستنجدت بالخادم! كيف كان نومك، سيدنا؟

– حقاً مضطرباً أيقظني حلم مزعج لازال يرعبني ككابوس ثقيل!

– جعله الله خيراً! ماذا دار في منامك؟

– داهمني أربعة من جنود المعسكر وأوثقوني وصاروا يضربونني بأخمص بندقياتهم حتى فقدت وعيي ثم طرحوني مكبلاً مصفوداً حجتهم إني تطاولت على العقيد آمر الفوج لدى مناقشتي الليلة الماضية، ولم تجد صيحاتي وإستنجادي بكل من محسن بهرواري ولطيف زيباري، فقد كانا غادرا الخيمة لتوهما. وكان هذا يجري تحت سمع وبصر العقيد الجلمودي القلب الجالس خلف منضدة يحتسي قنينة من العرق! وعبثاً حاولت الإستنجاد بك، لأنك أنت أيضاً كنت تتلقى الضربات في خيمة مجاورة لا أسمع منها غير الآهات والأنين!

– إنه حلم مرعب حقاً!

– أتراها من الكياسة أن أقصه على العقيد؟

– قد تكون في غير محلها، ولا طائل من تحتها.

– سيدنا أتعرف إني قتلت عقرباً أسود كاد أن يلدغني الليلة الماضية؟

– عقرب؟

– أجل عقرب! بعد خلودكما الى النوم أنت والشماس أرقت معظم الليل ساهراً مفكراً في أوضاعنا وإذا بالفئران والصراصر تسرح مرحى

لاحظت العقرب يزحف نحوي، فعاجلته وصفعته بفردة حذائي!

– لا أعجب حتى لو وجدنا الأفاعي في هذه الخرائب.

– إنها تكاثرت لأن هذه القرى حرمت الرش بمادة الدي دي تي منذ سنة.

– كيف يرشونها في ظل مثل هذه الظروف؟

– كان بوسع الحكومة أن تعطي الأجهزة والسموم للفلاحين ليقوموا هم بالرش.

– أجل كما أعطتهم الحنطة المعفّرة بالسموم لزراعتها، فأخذها بعضهم الى المطاحن!

– كان على الحكومة أن تقوم بحملة توعية شاملة قبل توزيعها عليهم لتفادي الكارثة.

– الفلاحون المساكين هم الضحية دائماً، أتتذكر أكياس الطحين البيضاء التي رسم عليها كفان يتصافحان وتحتهما كُتبت عبارة «هدية شعب الولايات المتحدة» ألم يستولِ ضباط الجيش والچتا عليها وباعوها وأنزلوا أثمانها الى جيوبهم.

أعاد الشماس الصفائح الى موضعها بينما إنشغل الخوري والمطران بإعداد الحقائب. حمل الشماس بعضاً منها ودفع الأخرى الى الخوري ليحملها بيده، وغادروا المستوصف منحدرين في أزقة القرية المهجورة.

وبينما المطران والخوري يتقدمان والشماس يمشي خلفهما وقف المطران أمام بعض الدور المحروقة وقد اقتُلعت نوافذها وابوابها ولم يبق منها سوى الجدران سائلاً:

– أين هرب اصحاب هذه الدور؟

اجابه الخوري بأسفٍ عميق:

– بعضهم الى الجبال وبعضهم الى المدن وآخرون الى قرى الجوار، والذين يخشون الحكومة إلتحقوا بالپارتيين.

– ما الذي إقترفوه ليستحقوا هذا العقاب؟ وما هو ذنبهم وذنب عيالهم؟

– لم يقترفوا جرماً وإنما مشكلتهم أنهم ضحايا ظروف حرب تعاطفوا فيها مع بني قومهم.

– هل تعتقد أن الحكومة أو الچتا سيعوضونهم يوماً عما فقدوه؟

– سيدنا، أنت مازلت تحت تأثير العقلية الغربية في أمريكا مَن ذا الذي سيدافع عن هؤلاء ويطالب بحقوقهم؟

– القانون، القانون، يا إبني! ألا ترى ان من العدالة ان يتم تعويضهم بعد إنتهاء الحرب؟

– لا أتصور أن الحرب ستنتهي بالسهولة والسرعة اللتين تتصورهما. إن فئة صغيرة من الپارتيين في هذه الجبال قادرة على إدامتها لسنوات طويلة. ثم ان الخزينة فارغة صرفها الزعيم على شراء الأسلحة من الإنكليز والروس والچيكوسلوڤاك، والتبرع السخي بالمبالغ الخيالية لهذا وذاك.

– إنتهاء الحرب قد يكون قريباً فهو مرهون بإرادة شخصين فقط: الزعيم والملا، إذا إتفقا، إنتهت الحرب.

– أجل! ستنتهي ولكن بعد خراب البصرة! فالخزينة فارغة والشعب مشتت والريف محروق والجيش منهوك! ألا ترى حتى أشجار الجبال أحرقها بالقصف والقنابل هذا الجيش الذي واجبه الأول هو حمايتها. انه منذ يوم تأسيسه أصبح أداة بيد الحكام لقمع كل من يفتح فمه، الحرب سوف لن تنتهي لأن هناك كثيرين ينتفعون من إدامتها وهم يصبون الزيت على نارها كلما خبت، وأول هؤلاء هم الچتا والجيش.

– أتعرف إني صرفت سبع سنوات في الولايات المتحدة ولا أتذكر أن وقعت عيني على جندي أمريكي واحد، أما هنا فحيثما أدرت رأسك لا ترى إلا الجنود، فهم في السوق والسيارات والقطار وفي كل مكان!

ثم أشار الى دار جميلة مروا من أمامها، ولم يبق منها سوى الجدران المحروقة فقد هوى سقفها في داخلها، مردفاً:

– تصور صاحب هذا البيت عائداً اليه ليشاهد هذه الأطلال ترى ما الذي سيقوله وايه خيبة أمل ستتمالكه؟

– انها مأساة، سيدنا، كنار في غابة، يحترق فيها الأخضر واليابس.

– لذلك واجبنا هو إطفاؤها، وينبغي العمل مع كل الخيّرين من أمثال

صادقي برو من أجل إيقافها.

دنوا من المعسكر وكان كخلية النحل في حركة دؤوبة من الرواح والمجيء، بعض الشاحنات العسكرية يغادر الباب النظامي وهي تكتظ بالجنود يحملون المعاول وأدوات الحفر. فوقف الثلاثة جانباً بإنتظار الدخول، وأخذ المطران يتساءل:

– الى أين يُساق هؤلاء، وما أمر هذه المعاول؟

دنا الشماس منه وأخذ يسرد عليهما ماسمعه من الچتا ليلة أمس حينما كان المطران والخوري منشغلين في الإجتماع مع العقيد:

– علمت أن العمل جار على قدم وساق لحفر الخنادق وتوسيع بعضها الآخر إستعداداً لشن هجوم واسع على مواقع الپارتيين.

– هل علمت متى ستبدأ الحملة؟

– على ماسمعت يبدو انها وشيكة، وان آمر الفوج عبدالمجيد السبع سيقود الحلمة، لأن ضغوطاً كبيرة تمارسها رئاسة أركان الجيش عليه وتتهمه بالتقاعس طوال الشتاء الماضي.

– نأمل ألاّ تبدأ الحملة قبل عودتنا يرافقنا صادقي برو!

– سيدنا، سمعت أيضاً أن الجيش سيدك معاقل الپارتيين بالمدافع والقصف الجوي بعدها سيكون الچتا في رأس المهاجمين يتقدمون الجيش بإتجاه قرية خيزاڤاك القريبة لإحتلالها، فهي موقع إستراتيجي لم يبلغه الجيش قط. وان هذه الخطة أملتها المقامات العليا في الجيش على العقيد لإحتلال قضاء زاخو.

إلتفت المطران الى الخوري والشماس مستفهماً:

– ستكون مأيمة ميتمة كبيرة على ما يبدو، إذا سار كل هذا الفوج يسانده المرتزقة.

ردَّ الشماس بينما المطران والخوري يتلهفان الى المزيد:

– نعم، سيعاونهم فوج زاخو ومعسكرا ئاڤگەنى ومەلا عەرەب وانهم سيتقدمون من كل الجهات مستخدمين المئات من مرتزقة البرواري والزيباري والريكاني والهركي.

في هذه الأثناء قدم نائب ضابط الى سيطرة الباب النظامي باحثاً عن المطران، حيّاه تحية عسكرية قائلاً:

– مولانا، تفضلوا، فالآمر بالإنتظار.

– كنا ننتظر الإذن بدخول المعسكر، يا إبني.

وتخطّى الثلاثة وتخلف الشماس لدى ضابط السيطرة يستقي المزيد من المعلومات.

وصلوا الخيمة وكان الآمر بالإنتظار، وتناولوا الفطور الذي يتألف عادة من شوربة العدس والصمون العسكري الأسمر. كان لذيذاً، سيما وأنّ المطران والخوري لم يتبلغا بشيء منذ أن غادرا معسكر ئاڤگەنى حينما تناولا عشاءً خفيفاً لدى العقيد ميخائيل بدرية. وعبثاً حاول المطران بعد الفطور البحث عن أقراص الدواء التي وصفها له الطبيب، فقد نسيها في درج مكتبه في المطرانية بسب العجالة التي غادروا بها زاخو.

كان كل همّ العقيد أن ينتهي ضيفاه من تناول طعام الفطور فأمامه نهار طويل من الإتصالات والإعداد للحملة العسكرية، ولأن محمود السائق مع سيارته اللاندروڤر كان ينتظرهما عند الباب النظامي.

أشارت الساعة الى السادسة والنصف صباحاً وهو موعد إنطلاقهما، فتصافحا مع العقيد بينما المطران يكرر عليه:

– لن يطول غيابنا أكثر من يومين أو ثلاثة كحد أقصى مهما كلف الأمر، فالتعامل مع الأغوات كما تعلم يكتنفه نوع خاص من البروتوكولات لا يمكن تجاوزها.

أجابه الخوري مستفسراً:

– أليس اليوم يوم الأحد؟ اذن سنعود يوم الثلاثاء او الأربعاء.

ضحك العقيد مقهقهاً:

– إن شاء الله، إن شاء الله، ستعودون ويعود صادقي برو معكم! وسنحتفي بالعودة الميمونة.

رد الخوري مازحاً:

– الواجب يقضي علينا أن نكتب وصيتنا الأخيرة، فقد يقضى علينا ولا

نعود نراكم ثانية!

رد عليه العقيد:

– لا أرى من يعترض سبيلكما فأنتما رجلا دين!

وضحكوا جميعاً بينما الخوري يشد من عزيمة المطران الذي كان لايزال يفكر بأمر الدواء الذي نسيه وماذا سيعمل إذا داهمه الدوار بدونه:

– سأذهب معك الى الموت، سيدنا!

وغادرا العقيد الى الباب النظامي وهما يرددان:

– لا نستطيع التأخر لدى صادقي برو الى أبعد من نهار الأربعاء لأن أشغالاً كثيرة تنتظرنا في المطرانية، فأما ان نقنعه بالعودة معنا أو نترك له خيار القدوم وحده متى ما قرر.

إستقلا السيارة كالمعتاد، المطران والخوري في المقعد الأمامي مع السائق محمود، والشماس يونان مع الحقائب.

تحركت السيارة بإتجاه الشرق تتبعها عاصفة من الغبار المتطاير من اطرها، فذكّر الخوري السائق بالتأني لأن ملابسهما السوداء تتلوث بالغبار بسرعة فائقة. وبعد دقائق تطلع المطران الى الوراء فلم ير باتوفا، فقد غابت عنه القرية كما غاب المعسكر ايضاً واصبحوا في منطقة قريبة من قرية خيزاڤاك التي طالما كانت ميداناً للتراشق بالمدفعية بين الجيش الحكومي والثوار الكُرد، وأخذ القلق يبدو على محياهما لاسيما الخوري الذي لم يكن متحمساً للذهاب الى ما هو أبعد من باتوفا متذكراً الإستقبال البارد الذي قابلهما به العقيد ورؤساء المرتزقة. وحاول الخوري مراراً إثارة حديث أو نقاش مع المطران لكنه كان قليل الكلام، يبدو أن هاجساً كان يقلقه، ربما كانت مشكلة الدواء الذي نسيه في زاخو او انه كان يحاول تفسير الحلم الذي رآه في منامه الليلة الماضية.

وكان قد سبقهم أربعة رجال مع بغالهم ينتظرونهم حيث ينتهي طريق السيارة في دهشتا چيێ، ولمحوهم من بعيد حين توقفت السيارة وترجلوا وتوقل الخوري قمة ليناديهم. فعاد أحدهم بدابته ليحملها حقائيهم الصغيرة.

ودعهم السائق بعد أن دس المطران ربع دينار في جيبه ثمناً لغدائه وعاد

مسرعاً يلمحهم بين الحين والحين في مرآته الداخلية، وهو يقول في نفسه:

– كل الذين نقلتهم الى هذه المنطقة لم يعودوا منها سالمين. مَن يعلم فقد أعود لنقل هذا الوفد عائداً الى زاخو! ما الذي دهاكما يا خوري ويا مطران أفندي؟ أليس البطر بعينه يدفعكما لركوب أخطار ملاحقة خيال صادقي برو؟

ركب المطران بغلاً والخوري بغلاً آخر، بينما آثر الشماس السير على القدم ليريح ساقيه من عناء الإقعاء في مؤخرة السيارة مع الحقائب، وتقدمت القافلة يستحثها الأجراء الأربعة، وبدأوا يتوغلون بين الغابات، وسمعوا صوتاً كأنه لطير غريب وأخذ الكل يتطلع وسأل الخوري:

– أصوت إسان؟

– كلا، إنما صوت طير.

وفجأة ناداهم شخص منتصب بين الأدغال:

– هون كينه؟ هون دێكيڤه چن؟ (من أنتم؟ والى أين ذاهبون؟).

وجمد الدم في عروقهم وكاد ريق الخوري ينشف لما رآه يسند بندقيته الى صخرة إحتجب وراءها. فصاح:

– تمهل! تفضل الى هنا...

قال مشيراً الى الشماس يونان:

– تو وەرە! (تعال أنت).

تقدم الشماس نحوه بخطى ثابتة وإلتقيا وتصافحا وقدم له سيگارة أولعها بنفسه له.

وبعد ثوان أفهمه أنهم رجال لا سلاح لهم وقد أتوا مرافقين مطران زاخو لزيارة الحاج صادقي برو.

فقال بلهجة صارمة:

– مطران زاخو؟ وما لمطران زاخو في هذه الجبال بين الأحراش والأدغال؟ بلى إننا نعرف إنكم جواسيس... أتحسبون اننا أغبياء. تفضلوا معنا الى المسؤول...

ثم أردف بالكُردية وبلهجة گۆيانية:

– بقاژو كەم وبپيرو كەم، ئەڤانە سيخورێ حوكمەتێنە! أي (اقسم بقاژو وبپيرو ان هؤلاء جواسيس الحكومة!)

كان رجلاً مربوع القامة له شاربان أسودان، يحمل بندقية برنو قصيرة، تمنطق بمحزمين من الإطلاقات وألقى آخر على كتفه الأيسر، يرتدي الشال والشەپک وقد دس حواف شاله في ساق جوربيه الصوفيين، يحتذي الكالك، يعتمر عمامة اليشماغ المرقط المنقط بالأسود والأبيض وقد لفه حول رأسه بإحكام ويتدلى من عنقه ناظور عسكري وراديو ترانزستر صغير كان مازال يصدح بأغنية «كەوا سپێدێ بخوينه» لگولبهار. إستحوذ الخوف على المطران وأخذ يقول للخوري:

– أبونا، ما العمل؟ هل نذهب معه أم نتباطأ كسباً للوقت ريثما نجد مخرجاً من هذا المأزق أو نتفاهم معه لإخلاء سبيلنا للعودة.

فأشار اليه الخوري مؤكداً:

– يجب أن لا نتردد في المضي معه وإلا فسنقترف حماقة.

ثم أخذ المطران يسأل الخوري:

– أنحن متأكدون من أننا لم نقع بأيدي لصوص أو قطاع طرق؟ هل لنا أن نسألهم إن كانوا پارتيين؟

لم يكترث الخوري ولا الشماس بأسئلة المطران الساذجة بل حاول الشماس تهدئة الموقف بقوله:

– ليس من شيم الپارتيين إختطاف الرهائن ولا هم يسجنون احداً دون سبب، إنهم ثوار بحاجة الى تعاطف الرأي العام معهم. انهم سيطلقون سراحنا حال تأكدهم من اننا نرافق مطران زاخو. فلنذهب الى المسؤول وهناك نقول لهم الحقيقة.

فرد عليه الخوري:

– ماذا لو علموا أننا في طريقنا لإقناع صادقي برو بتسليم نفسه للحكومة وإعلان ولائه للدولة، ألا يعتبرون هذا بمثابة طعنة من الخلف؟

أجاب المطران:

– سنشرح لهم الموقف بالتفصيل وكيف إن الحكومة أرغمتنا على القيام

بالمهمة، وهي الحقيقة بعينها.

إقترب الپيشمەرگه، وهو مازال شاهراً بندقيته الإنكليزية القديمة قائلاً:

– يونان، مطران أفندي چ دبێژيت؟ (ماذا يقول سيادة المطران؟)

أجابه الشماس متلعثماً:

– انه يخشي البندقية المشهورة في وجهه، أبعدها عنه، رجاء فكما ترانا لا نحمل سلاحاً او شيئاً يهددكم.

– أنا إنما أقوم بواجبي، علىَّ أن أكون على جانب من الحيطة والحذر. مَن قال إن هذا الرجل هو مطران زاخو وليس ضابطاً في إستخبارات الجيش متنكراً بهذا الزي.

– لك الحق، ولكنه لايستحق التهديد بالبندقية.

مرت كالبرق في ذاكرة المطران أقوال عبدالأحد مشۆ عندما كانوا في برسقێ يستعدون للسفر الى باتوفا. وإستعادها مع الخوري ولكن الأوان كان قد فات، فقد إنتهى تهديد آمر المعسكر وهم الآن في معسكر آخر، وفي دنيا أخرى.

بعد لحظات من السير كان الأسرى الثلاثة يتباحثون في توحيد إفاداتهم أمام المسؤول، خوفاً من أنه قد يستنطقهم كل على حدة. وبدأ الخوري يسرد روايته:

– سأقول للمسؤول إن لحاجي آغا حسابات قديمة مع المطرانية منذ زمن الملكية في حملة الإنتخابات بينه وبين ديندار بك، أراد تصفيتها الآن، بإستخدام نفوذه لدى السلطات بزج المطران في التهلكة ظناً منه ان البارتيين سيعتقلون المطران أو يقتلونه عند محاولته العبور الى مناطقهم وبذلك يقتص من المطرانية ويؤلب الرأي العام ضدهم وضد قضيتهم.

والمطران إختصرها قائلاً:

– يجب أن لا نقحم الماضي البعيد في هذه القضية لئلا تبدو غريبة الأطوار وإنما يجب التركيز على أن المؤامرة من حبك المرتزقة يؤيدهم في ذلك العقيد عبدالمجيد السبع وقائمقام زاخو ولم يكن لنا خيار في الموضوع.

أما الشماس فعرضها بقوله:

– نحن يجب أن لا نعطي كثيراً من التفاصيل إلاّ إذا طلبوها منا. فالأفضل أن نقتصد في الكلام، وإلاّ فإن الإفادات ستكون طويلة وقد تعرضنا الى الإختلاف في الآراء.

بعد مناقشة قصيرة إتفقوا جميعاً على أن إفادة الخوري هي الأقرب الى الواقع، وإنهم سيقولون الحقيقة مهما كلّفهم ذلك.

وعندما وجدوا ان الأمر تطور الى مأساة، إستأذنوا بالرجوع ولكن من الخلف ظهر بغتة مقاتلان آخران سمعوا منهما تهديداً وكلاماً قاسياً:

سمعوا الأول يتوعد بلكنة عشائر أرتوش:

– تو كو دبێژی؟ پا بشێخ ئوسقێ تەنگا كوزاڤي كەم هەكە نەهاتن ئەز دێ وا لێرە كوژم! وترجمتها: ماذا تقول أقسم بشيخ يوسف الراقد في مضيق كوزاڤ إذا رفضوا السير سأرميهم هنا!

لم يفهم الخوري إلاّ كلمة «كوژم» وعلم أنها تعني القتل فإرتعدت فرائصه خوفاً وأفهم المطران أنهم في مأساة!

ثم نادى رفيقه الآخر:

– هذه منطقة حركات، لماذا لم تطلق النار، ألسنا مخولين بالرمي؟

أجابه الپيشمەرگه الثاني:

– تراءت لي من بعيد هذه الجبب السوداد كالعباءات، ظننتهم نساءً يحملن أطفالاً اضللن سبيلهن!

ثم صاح بهم الأول:

– ده باژون، پسمام، باژون! (سيروا يا إبن العم سيروا!)

ولما وجدوهم يتباطأون أخذ يعالج أقسام بندقيته مهدداً:

– ببارزانكەم من فيشەكەک نەئاڤێتيە بەلاش! (أقسم ببارزان إني لم أطلق رصاصة سدى!).

ثم أردف:

– تقدموا ولا تترددوا لحظة واحدة وإلاّ ...

وبدا لهم الرجلان شابين في مقتبل العمر حليقي الوجه، يحمل كلٌّ بندقية إنكليزية قديمة مع مخزنين فقدا طلاءهما من الإحتكاك بالصخور لا ينقصهما

إطلاقة واحدة، أحدهما قد دسّ في حزامه خنجراً أسود القبضة، وكلاهما يرتديان فوق الشەپک صدرية من اللباد البني.

وشهر البندقية وساروا. يا لذل الأسر! ثلاثة رجال أحدهم في المقدمة والثاني في الوسط والثالث في المؤخرة... بلغوا قرية مهجورة هي خيزاڤاك، وإنتهوا الى أكمة جميلة كثيفة الأشجار تشبه مقبرة أو مرقداً، فأمرهم الحارس الأول:

– راوەستن! (قفوا!)

وتركهم تحت حراسة مرافقيه الآخرين وغاب عنهم بين الأشجار وسمعوه على بعد خطوات وسط لغط يقول:

– ألقت مفرزتي القبض على ثلاثة جواسيس!

– جواسيس!

– أحدهم يدعي أنه مطران زاخو!

– فتّشهم بعناية قبل أن تأتي بهم. لعل الحكومة أرسلتهم للتخريب والتجسس.

عاد مسرعاً وأخذوا يفتشونهم بدقة ثم دعاهم للمثول أمام الرئيس المسؤول. وإذا بهم أمام جمع من الرجال تجمعوا حول نار يتوسطها من طرف الى آخر سفود محمل بقبوج يشوونها... وما إن شمَّ الخوري قتارها حتى سال لعابه، كانت الساعة السابعة والنصف، حيّوا وصافحوا الجميع ودُعوا للجلوس، وجلس إزاءهم الرئيس عيسى سوار البارزاني وهو شاب ممشوق القامة يعتمر عمامة بارزانية حمراء تتكون من يشماغين ملفوفين بإحكام وعيناه الزرقاوان تنتقلان بخفة بين المطران والخوري، له شاربان قصيران، يختلف عن الجالسين حوله بأنفه القصير وهندامه المرتب ومحازمه الحمراء الجديدة التي تحمل توقيع «حسيب قادر» صاحب المعمل الذي أنتجها في أربيل، لا تفارقه بندقية برنو طويلة لماعة الأخمص والمقبض، تشاهد بوضوح بريق أضراسه، التي ربما رممت بالذهب الروسي لما كان في الإتحاد السوڤيتي، تفرض هيئته الرهبة والوقار على المتحلقين حوله.

وجه إليهم مختلف الأسئلة بعد أن إعتذر لهم بأنه حديث العهد في المنطقة،

ولا يعرف الكثير عن وضع زاخو فقد أوفده أسعد خۆشەڤي لقيادة القاطع العسكري فيها بناء على أمر من البارزاني، بعدها طلب منهم الإدلاء بأسمائهم بدءً بالمطران سائلاً:

– كيف وضع رعاياك منذ إندلاع الثورة؟

– وضع رعاياي كان سيئاً كوضع سائر القرى الكُردية ولكن آمناً حتى إندلاع الثورة الكُردية، أما الآن فإن قراهم تقصفها الطائرات والمدفعية وليست هناك أية خدمات حكومية في ناحيتي الگولي والسندي وبعض مناطق السليڤاني.

– عن أية خدمات تتكلم؟

– المدارس تعطلت منذ الخريف الماضي والخدمات الصحية معدومة وأخذ الأهالي يهجرون قراهم الى المدن لإدخال أولادهم الى المدارس للسنة الدراسية القادمة.

– كم عدد قرى رعاياك التابعين لمطرانية زاخو؟

– في قضاء زاخو وحده كان لدي أكثر من خمس وثلاثين قرية عامرة حتى الخريف الماضي ولكن بعد القصف الجوي والمدفعي إنخفض العدد الى النصف، ومايزال ينخفض!

– الى أين يذهبون؟ وكيف يتدبرون شؤونهم؟

– الى زاخو والموصل وبغداد، فها قد إمتلأت زاخو بالقرويين الفقراء من شرانش وآلانش وقرى الجبل، أما أهالي سناط فيقصدون الموصل لأن لهم فيها بعض الأقارب. وأهالي دێرەبون وپێشخابور يقصدون الى أبعد من ذلك إذ إكتظت منطقة البتاويين في بغداد بهم. الوحيدون الذين لم يهاجروا حتى الآن هم الگزنخية والمركهية فهم مازالوا متمسكين بأراضيهم وقراهم رغم تعرضهم للنهب والسلب.

– كيف يتدبر هؤلاء أمور معيشتهم، ومعظمهم لا يعرف العربية في المدن الكبيرة؟

– بالعمل كالخدم والحشم للأثرياء في بغداد ومزاولة الأعمال الوضيعة التي لا تليق بكرامتهم كأناس تعودوا الحياة الحرة الكريمة في قراهم

ومجتمعهم الأصلي.

– ماهو موقفهم من الحركة القومية الكُردية؟

– إنهم عموماً، يتعاطفون مع الحركة ويأملون لها النجاح من أجل إنقاذ البلاد من الدكتاتورية وضمان الإستقرار لكي يتوجهوا نحو الإنتاج والمساهمة في بناء البلد. هلاّ سمعت لماذا يسمون «فه‌له» بالكُردية؟ إنه تحريف وترخيم لكلمة «فلاح» التي أطلقها عليهم العرب القادمون من الجزيرة العربية أيام الفتوحات لأنهم كانوا فلاحين يزرعون الحقول والكروم، فهذه إنما هي صفة حرفتهم أما قوميتهم الحقيقية فهي الآشورية، ولصق بهم الإسم منذ ذلك الزمان لأن الأسياد الجدد كانت شغلتهم الرئاسة وإدامة الغزوات والفتوحات كما يقول إبن خلدون!

– كيف تمارس الحكومة الضغط عليكم وعلى رعاياكم؟

– مشكلتنا الأساسية ليست التعامل مع الحكومة وإنما مع المرتزقة الذين أطلقت لهم الحكومة العنان لنشر الخراب والدمار والحرق والنهب والسلب! أجل، الحكومة مذنبة لأنها لا تسيطر عليهم وتلجمهم وهنا أود أن أعلمك أن نصف رعاياي سلبوا ونهبوا وسرقت مواشيهم وحُرقت حقولهم وبساتينهم التي زرعوها وفلحوها لمئات السنين! أما مشكلتنا مع الحكومة فهي إنها تنظر الينا بعين الريبة والشك ولا تثق بنوايانا، وتتهمنا بالتعاون مع «العصاة»، كما تسميكم.

– هل من رعاياكم مَن إنخرط في سلك الإرتزاق؟

– على حد علمي، ليس هناك نفر واحد من رعاياي مع المرتزقة، إنهم لا يكنون لهم الود. وبالمقابل، كثيرون من رعاياي إلتحقوا بصفوفكم حاملين السلاح، أليس حنا طلو وعمانوئيل سندي وآدم هوزي بعضاً منهم.

– كيف تتعاملون مع الظروف الراهنة ومع الحكومة؟

– كما قلت قبل قليل، إن اوضاعنا سيئة، ونحن لا نتوقع ان تتحسن في القريب العاجل إلا إذا توقفت عمليات حرق القرى والقصف الجوي والمدفعي. لكي يعود الأهالي الى قراهم وينهمكوا بأشغالهم بدل الإنشغال بالأحزاب السياسية فهي لم تجر على المنطقة إلا الخراب

والدمار.

– هل لديك معلومات عن تحركات الجيش؟

– ليست لدي معلومات أكيدة، ولكن مرافقنا الشماس يونان قد يفيدكم بشيء منها.

إلتفت اليه عيسى سوار يسأله:

– هل لديك ما يمكن الإستفادة منه؟

– تدل المعلومات الأخيرة على أن فوج باتوفا بقيادة عبدالمجيد السبع منشغل بالإعداد الجدي لمهاجمتكم عن قريب، فقد رأيت هذا الصباح الشاحنات العسكرية مكتظة بالجنود يحملون المعاول وأدوات الحفر وعلمت أنهم يحفرون الخنادق بالقرب من هذه المنطقة، وأما عن موعد بدء عملياتهم فلا أعرف غير أنه وشيك، لذا عليكم التهيؤ.

ثم إستدار نحو المطران يستأنف إستنطاقه:

– وماذا عن المرتزقة؟ مَن منهم تعتبره الحكومة معتمدها في زاخو؟

– المرتزقة من أهل زاخو نفسها وأطرافها قليلون، ولكن هناك مَن تستقدمهم السلطة من مناطق أخرى للقيام بأعمال النهب والسلب، والمعلومون منهم تعرفونهم بالأسماء.

– هل لكم رعايا في تركيا أو سوريا يمكن الإعتماد عليهم؟

– الرعايا المسيحيون في تركيا وسوريا ليسوا تابعين لي من حيث الناحية الإدارية ولكنهم يأتون الينا نظراً لقلة الكهنة في مناطقهم لأنها نائية وجبلية وهم عموماً فقراء ليست لهم قابليات فنية أو إدراية أو عسكرية، وبإمكانكم الإتصال بهم عبر الحدود.

– رعايا في الموصل وبغداد أو المدن؟

– أنا نفوذي لا يتعدى قضاء دهوك، أما أهل المدن الأخرى الكبيرة فلا سلطان لي عليهم.

– كيف نحصل على السلاح والعتاد؟

– أنا رجل دين، لا علاقة لي بالسلاح، أليس ما لديكم يكفيكم؟ ثم إذا كان هذا حالكم فلماذا قمتم بالحركة قبل إعداد العدة لتوفيره؟ لا تخشى فإن

ملا مصطفى قادر على توفيره.

– ماذا يتوقع الناس من الثورة الكُردية؟

– منهم مَن لم يكن مستعداً لدى قيام الحركة، ومنهم مَن دفعتهم الحكومة الى أحضان الحركة، ومنهم مَن تضرر من قيامها ومنهم مَن إستفاد، لكن المستقبل غامض لدى الجميع، فلا أحد يقدر التنبوء بالمستقبل ومدى تأثير الثورة الكُردية على مجريات الأمور في البلاد. فقد يقدِّر الله لها النجاح القريب فتنقذ الكلَّ من الدكتاتورية.

– سمعت إنك سافرت الى أوروبا العام الماضي، فهل للحكومة يد في إرسالك؟

– سفري الى روما كان لحضور المجمع القاتيكاني الثاني الذي يعقد كل خمسين أو مائة سنة مرة للتداول في شؤون الكنيسة والمسائل الدينية المتعلقة بالعصر ولا علاقة له بالسياسة وقد حضرته كما حضره آلاف الأساقفة من كافة القارات.

وجه اليهم أسئلة مختلفة، أجابوا عليها بصراحة تامة. ثم قطَّبَ وقال:

– إن ما قمتم به خطير جداً، واحمدوا الله أولاً لأنكم لم يصبكم مكروه، فنجاكم من الموت بمعجزة لأن الكمين على الطريق لا يخلو من الرصداء البواسل، ثم إنكم تحاولون بما فعلتم فلق أمتنا لبثكم دعوى الصلح والإستسلام ولكنكم على ما يبدو مكرهون أو مغرر بكم، مع هذا فأنتم الآن قيد الإقامة الإجبارية في منطقتنا المحررة بإنتظار أوامر القيادة.

فقاطعه أحد مساعديه منادياً إياه:

– ئەم شيڤا وان نەدن؟ (ألا نعطيهم العشاء؟)

إلتفت المطران الى الخوري يتخافت مبتسماً:

– ألم أقل لك إنهم سيهتمون بأمرنا، فها هم يفكرون بعشائنا منذ هذه الساعة المبكرة.

– إنه يتكلم عن رمينا بالرصاص! أتفهم الآن عن أي عشاء يتكلم الرجل؟

إنكمش المطران على ذاته وطارت إبتسامته وعلم عيسى سوار ما دار بينهما، وقد أزعجه صراخ مساعده فأجابه:

– هؤلاء ليسوا خونة وإنما غُرر بهم.

ثم أردف متوعداً:

– زه بئاخا بارزانكەم هەكەر نەمەتران بايە... (أقسم بتراب بارزان، لو لم يكن مطراناً ...)

وإلتفت الى رمضان عيسى أحد مساعديه العسكريين يأمره:

– إذهبوا بهم الى مقر أسعد خۆشەڤي، فهذه مشكلة سياسية لا طاقة لي بحلّها. ثم إني سأنشغل بحماية المنطقة من الهجوم الحكومي الوشيك إذا صدق قول هؤلاء.

لم يكن لأسعد خۆشەڤي مقر دائمي، فالثورة ما تزال في مرحلة بدائية يعتمد مقاتلوها على ما توفره لهم القرى في المناطق المحررة من مأوى ومأكل ومشرب، وإنما قال هذا ليبلغهم بأنها مشكلة كبيرة لم يشهد لها مثيلاً.

وهمّوا بالسير حين طلب من الخوري تسليم حقيبته اليدوية للتفتيش. وخلا وجه الخوري من الدم وتسارع قلبه ولكن لا حيلة له وأين المفر؟

إنتحى جانباً مع عيسي سوار وفتح له الحقيبة، ونفض ما فيها من أوراق ومجلات وعثر على راديو ترانزستر صغير وصور فوتوغرافية صادرها منه، ولحسن الحظ لم يفتح الجيب الخلفي لها، حيث كانت المفاجأة الكبرى تنتظرهم، أي الرسالة بخط يد العقيد عبدالمجيد السبع معنونة الى الحاج صادقي برو يدعوه فيها الى تسليم نفسه وإعلان ولائه لقاء الأمان!

عيّن رمضان عيسى حرساً يرافقهم الى حيث يرسلهم برئاسة أحد البارزانيين الذين يعملون تحت إمرته، فعاودوا السير ركوباً على ظهور البغال يقطعون الوديان العميقة ويتوقلون الجبال الشاهقة والحرس لا يفارقهم لحظة.

كانت الرسالة عبئاً ثقيلاً على الخوري أكثر من أي شخص آخر فهي دليل جرمي وجب عليه التخلص منه بأقرب فرصة سانحة وتمكن في إحدى محطات وقوفهم للإستراحة أن يغافل الحرس ويمزقها إرباً إرباً، بعدها شعر بخفة وزنه وإنطلاقة في روحه.

في العاشرة والربع حطوا عصا الترحال عند قاسم حامد أخي عبدالكريمي حامد وهو من أعيان منطقة السندي، في مصيف ئەڤل وپيربلا، حيث لم

يشعروا بالغربة أو الوحشة لأن الوجوه لم تكن غريبة عنهم. وأحاط بهم القوم في المكان. وكلّهم كانوا قد هجروا مساكنهم ولاذوا بأفياء الأشجار في قعر هذا الوادي السحيق في گلي پس آغا السندي، تحيط بهم الخضرة من كل جانب، وجدول رقراق ينساب بالقرب منهم يقطع طريقه تحت ظلال الجوز والحور.

إحتفى القوم بهم وإستغربوا أمر قدومهم، وأسرع قاسم مبتسماً مستقبلاً:

– ما هذه الزيارة الميمونة، كەسێمن (مولاي)، أهلاً بكم، والله ان هذه المنطقة لم تطأها قدم مطران منذ أن كان مقر مطرانية زاخو في قرية ديراهيني في گلي گۆيان قبل قرن من الزمان على ما بلغني من جدي. ولم أركم منذ الخريف الماضي عندما لقيتك في مجلس ماموستا جميل في قائممقامية زاخو لدى طردنا الحكومة منها! ألا تتذكر؟

– نعم أتذكر، يا قاسم، كانت تلك أياماً جميلة لن تعود، إستحوذ فيها الشعب على الحكومة دون إراقة دماء، وأتذكر فرحة النصر والمهرجانات في الأسواق!

– أتيتمونا للتفقد أم انك من المغضوب عليهم ومن العصاة مثلنا فآثرت الإلتحاق بالثورة!

– لا هذا ولا ذاك، وإنما حكمت عليَّ صروف الدهر أن نلتقي في مصيفك الجميل هذا، ليتها ظروف أخرى أكثر بهجة.

– ما الذي جرى. آمل أن يكون خيراً!

– أجبرتنا الحكومة على القيام بوفادة الى الحاج صادقي برو لإقناعه بتسليم نفسه وإعلان ولائه للدولة، ولما إجتزنا خطوط التماس بينكم وبين الجيش قبض علينا الپيشمەرگه، وها نحن رهن الإعتقال.

– رهن الإعتقال! ماذا تقول؟ أبوسعنا أن نعتقل مطران زاخو؟ ألم تكن أنت الذي أمرت القرى المسيحية بجمع الأرزاق والمؤن لنا حينما كنا نحاصر الجيش في گلي زاخو لثلاثة أيام في نيسان الماضي؟ آه أتذكر ذلك البيض المسلوق اللذيذ من قرية ئاڤزورك جلبه لنا القرويون. فلولاك لما إستطعنا المقاومة ببطون خاوية أكثر من ساعات. ألم يقل قائد عسكري

كبير إن «الجيش يسير على بطنه!» إذن أنت ايضاً پيشمەرگه مثلنا.

– أجل ولكن رهن الإعتقال! كانت نوايانا صافية تجاه الحكومة وتجاهكم، ولكن ظروف الحرب حكمت علينا وأوقعتنا في هذه الورطة.

– كەسێمن، لا تتشاءم ولا تكتئب فأنت بين أهلك وذويك ولكني أشم رائحة الأغوات المرتزقة في هذه القصة! إنهم دفعوا بك الى مناطقنا ظناً منهم أنا سنقتلك وبذلك يقيمون الدنيا ويقعدونها على أن ثورتنا ضد المسيحيين ورجال الدين وأنها حركة لادينية. فهل تظن أنها كانت مؤامرة ضدك بالذات؟

– قد يكون لهم ضلع بالموضوع، ولكن كان عليّ أن أكون أقل تسرعاً وأكثر حكمة لكي لا أقع في شباكهم، فأنا كما تعلم، رجل دين لا شأن لي في السياسة ولاطموح لي فيها وإذا ما كان الحاج صادقي برو مع الحكومة أو ضدها فهذا لا يقدم ولا يؤخر شيئاً في وضعي كرجل دين يعمل مع الكل.

– كەسێمن، أنت عالم ديني ومجرب حكيم عاش في أمريكا لسنوات، كيف إستطاعوا إغواءك، ألا تعلم أننا رغم قلة عددنا وعدتنا مسلحون بالإيمان بقضية شعب وأمة تريد الحياة وإنقاذ نفسها من الفناء؟

– أخي قاسم، كل ما تقوله صحيح، وأعلم ذلك كما تعلمه أنت، ولكن ما حيلتك إذا كانت رعيتك على السندان وتحت رحمة المطرقة مهددة بتهمة جاهزة هي خيانة الدولة. قلت في نفسي سأقوم بهذه المهمة الإنسانية حتى لو كلفتني حياتي إرضاءً لهم لا لأني مؤمن بها بل من أجل رعاياي المسيحيين في كُردستان. ألم تسمع الزعيم يقول من ليس معنا فهو ضدنا! قمت بالمهمة وأنا أقول في نفسي إذا علم أصدقائي الپارتيون فسيفهمون وضعي الذي أواجهه كل يوم في زاخو.

– كەسێمن، كان عليك أن ترسل شماساً أو قساً أو أحداً آخر للقيام بهذه المهمة، وليس أن تكلف نفسك كل هذا العناء في هذه الظروف الخطرة وأنت رجل بهذا العمر. أودك للحظة أن تتصور الأمر معكوساً أي إذا كانت الثورة قد أرسلتك بمهمة كهذه في مناطق الحكومة، تأمل ماذا كان

سيحصل لك؟ أليس الفرق بيننا وبينهم كالفرق بين الحق والباطل؟

– أخي قاسم مهما قلت أو أقول لا طائل تحته الآن، لأننا عاجزون عن إعادة عقارب الساعة الى الوراء!

– كەسێمن، كان يجب أن تجري هذه الأمور في السر وبإتفاق تام بيننا وليس كما فعلت في العلن، فمن يمكنه إغفال مطران قادم من زاخو على رأس وفد؟ أستطيع أن أقول لك بكل تأكيد إن سكان هذه المنطقة بما فيها من قري نائية لا بُدّ وأنهم سمعوا بالوفادة وماتحمله من معان سلبية. ومعناها الأول والأخير هو أنك وضعت نفسك والمطرانية في خانة الحكومة ضد الشعب الكُردي المناضل من أجل حقوق بسيطة!

– إن ما قلته صحيح يعوزه شيء واحد هو إن نيتي كانت صافية وصادقة تجاهكم، وكما تعرفني فإني أتعاطف معكم من كل قلبي وأدعو لكم النصر يومياً في صلواتي، وحتى لو ضحيت بحياتي من أجل إنقاذ رعيتي فأنا راضٍ.

هنا قاطعه أحد الحراس الذين أرسلهم عيسى سوار لمرافقتهم صارخاً:

– ماذا ظننتم؟ أحسبتم أننا نمزح حينما رفعنا شعار «كُردستان يان نەمان» إننا مصممون على تطهير أرضنا من كل جواسيس الحكومة ومن كل المرتزقة الجحوش، وسيان لدينا ان كان الجاسوس أو المرتزق مطراناً أم إماماً!

فتدخل قاسم مدافعاً عن المطران:

– أنا لا أقول ان المطران جاسوس أو خائن أو مرتزق، فنحن نعرفه منذ أمد بعيد ونعرف مدى إخلاصه ونواياه الصادقة، ولكن الوفادة التي قام بها غير صحيحة، كان يجب أن تعالج بطريقة أخرى، ونحن في الثورة الكُردية نتنازل دائماً عن شيء لنحصل على ما هو أكبر وأهم بالنسبة لنا. إن بقاء المطران ورعاياه المسيحيين الى جانب الثورة له أهمية بالنسبة لنا.

ثم أعقبه عبدالكريمي حامد أخوه متخافتاً مع المطران:

–كەسێمن، هذا الرجل لا يعرف مقامك عندنا، فأرجو ألاّ تؤاخذه، ونحن

نعرف إن ما قمت به كان بحسن نية، ومن حسن حظنا إن ثورتنا يقودها رجل حكيم مرن هو البارزاني يعاونه قادة حكماء، ثق إنهم سينظرون فيها وسيطلقون سراحكم فوراً حال بلوغهم توصياتنا وتوصيات غيرنا.

كان الليل قد أرخى سدوله وخيم ظلام دامس على گلي پس آغا، وساد هدوء مطبق على الوادي لا يقطعه إلا حفيف أوراق أشجار الجوز والحور تداعبها نسمات الهواء، ونقيق الضفادع في أسفله على ضفتي النهر الذي لا يهدأ خريره نهاراً وقد ضاعف سكون الليل حدته. وبدأت الديكة المجتهدة بالصياح إيذاناً ببدء الهجعة الأولى من الليل، وأخذت الأضواء الضعيفة الصادرة من الكپرات الكائنة على الطرف الآخر من النهر تنطفيء الواحدة تلو الأخرى، وبدا الوادي من أعلاه الى أسفله لوحة سوداء، وعينا المطران أثقلهما النعاس، ينغلق عليهما جفناه المتعبان، وتتألقان أحياناً على بصيص نور الفانوس النفطي كلما إرتفع صوت حاد من حوله كبكاء صبي أو سعال شيخ!

أحس قاسم أنه أصبح المتكلم الوحيد في هذه السهرة لأن ضيفه المطران يغيب عنه عند إستحواذ النعاس عليه، ينوء عنقه تحت وزن رأسه الثقيل الذي أخذ يترنح بحركة آلية بطيئة نحو الأسفل، فأيقظه قاسم برفق قائلاً:

– كەسێمن، عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة، إن النسوة سيهيئن لك الفراش.

عاد المطران الى رشده وهو يمسح وجهه بيديه متلعثماً:

– قاسم، إن ركوب البغال أعياني طوال النهار!

ثم دعا قاسم زوجته:

– بهار، نڤينێ مێڤانا رائێخن (أعدوا أفرشة الضيوف).

فرشت بهار فراشاً خاصاً للمطران يتألف من أرائك الكوچەر الزاهية الألوان، ووضعت عند الرأس وسادتين وثيرتين وغطاء صوفياً سميكاً. أما الضيفان الآخران ففرشت لهما اللباد وأضافت اليه كساءً خفيفاً.

بادرهم قاسم مختتماً سهرتهم:

– شەڤا هەوە خۆش بيت! (طابت ليلتكم)

– ياته خۆشترا! (ليلتك إطيب)

آوى كلٌّ الى مضجعه. وبعد دقائق أخذ المطران بالشخير الذي على نبراته بدأ الخوري يفكر مقارناً بين ضفادع اليوم وفئران الأمس والفريسة والمفترس والعقارب والثعابين وهو يضيف في دفتر مذكراته:

«رقدنا مبكراً. وطار النعاس من عينيّ رغم التعب والإعياء أخذت أضرب أخماساً بأسداس دون جدوى، وأرثي لحالتنا، كيف لا والمصير مجهول والحالة تعيسة، ومن يعلم كم من الزمن تطول، وشعرت باليأس الخانق، وكأنه كابوس على صدري. أفكار سوداء، لا أمل، لا بصيص من النور يلوح من قريب أو بعيد».

5

معركة خيزاقاك

الإثنين ٢٨ أيار ١٩٦٢

إستيقظ الخوري مبكراً على تمتمات المطران وهو يصلي صلوات الفرض. وبعد الفطور الذي تألف من جبن الزوزان والبيض المقلي والشاي، أعرب الضيفان عن رغبتها بزيارة عبدالكريم اخي قاسم تخطى الإثنان يرافقهما قاسم الى كپرة عبدالكريم القريبة.

خرجت گولێ بقوامها الفارع ترتدي شفوفاً أحمر يكاد يلامس الارض، عقدت أذيال اردانه خلف ظهرها فإنحسر ذراعاها الأبيضان الطويلان حتى ما بعد المرفقين، ولبست فوق الثوب صدرية ذهبية صغيرة، وتمنطقت بوشاح أصفر لا يفيها حقها إلاّ قول كاويس آغا لدى وصفه امثالها «بەژن زراڤا ناڤتەنگ غەزال». (هيفاء ذات قد الغزال)!

غسلت يديها من العجينة التي كانت تهيؤها وأخبرتهم ان زوجها غادر مبكراً الى الجبهة مع مجموعة من شباب القرية وقد ترك لأخيه قاسم خبر ذهابه موصياً أخاه الإهتمام بضيفيه ريثما يعود بعد أيام ليعاود مناقشاته مع المطران ويساهم في الدفاع عنه لدى عيسى سوار. فعاد الثلاثه أدراجهم واخذ قاسم يحدثهما عن سبب مغادرة أخيه وشباب القرية قائلاً:

– كەسێمن، الوضع العسكري سيء جداً، ونحن مهددون، لأن آمر الفوج العقيد عبدالمجيد السبع قد آلى على نفسه بإحتلال قرية خيزاقاك القريبة من باتوفا، وقد اعدَّ العدة لذلك فإستقدم مجموعات كبيرة من مرتزقة

محسن بەرواري ولطيف زيباري وما أمكنه جمعه من المرتزقة المحليين لشنِّ هجوم مباغت على مواقع الثورة، لكننا بعونه تعالى سندحر هجومهم كما فعلنا في السابق.

فعارضه المطران مستفهماً من الخوري:

– عفواً، قاسم، خيزاڤاك؟ أليست القرية التي أوقفونا فيها صباح أمس وإلتقينا فيها القائد عيسى سوار وجمعاً من الپيشمەرگه؟

– بلى سيدنا، تلك القرية الصغيرة القريبة من باتوفا!

فعاد قاسم الى موضوعه يشرح:

– ربما كان عيسى سوار على مقربة من قرية خيزاڤاك لإستطلاع المواقع الأمامية ويرصد حجم قوات الجيش. ويرسم خطة الدفاع.

فتدخل الخوري مازحاً:

– ماذا تقول، انهم كانوا يشوون سفوداً محملاً بالقبوج على نار هادئة تجمهروا حولها! شممت قتار اللحم المشوي فسال لعابي وتمنيت لو كنت أحدهم، يا قاسم!

– هذه من عادات الپيشمەرگه، انهم بذلك يبثون نخوة الپيشمەرگايەتى في صفوفهم بينما هم يضعون الخطة ويوزعون المهام العسكرية ثم يعودون الى مقراتهم تاركين وراءهم من يراقب الوضع عن كثب. واني لواثق من أن مجلسهم ضم من العسكريين رمضان عيسى وعلى هالو وعبدالرحمن دينو وسلمان كەلوكى وسليمان سندي ومحمودي حەمرى ولطيفي چينا وشريف موسى مچولي وحنا طلو ونافو پەراڤي بالإضافة الى مساعد آمر الهيز هاشم ميروزي.

وسأله المطران مستفهماً:

– اذا استطاع فوج باتوفا إحتلال خيزاڤاك، فهل لذلك أهمية إستراتيجية أو خطر عليكم وأنتم على السفح الشمالي من الجبل لگلي پس آغا؟

أجابه قاسم مذهولاً:

– كيف لا، كەسێمن، إن خيزاڤاك كانت دوماً شوكة في خاصرة الجيش المرابط في باتوفا منذ ان تقدم هذا الفوج وإحتل مركز ناحية الگولي،

فمنها تنطلق مفارزنا وتشتبك يومياً في معارك صغيرة مع الجيش، انها جعلت حياتهم جحيماً منذ ان تقدموا واحتلوا باتوفا في نهاية الخريف الماضي بعد بدء الثورة.

وإستطرد قاسم يشرح لضيفيه:

– وكما تعلمون إن القرية خالية من سكانها، ومعظمهم قد التجأ الى گلي پس آغا عندنا شأنها شأن قرى عديدة.

وأعرب المطران عن قلقه إزاء الخطر المحدق بمضيفه وسكان هذا الوادي من اللاجئين قائلاً:

– هل أنتم متهيؤون للدفاع؟ وماذا عن السلاح والعتاد؟

– كەسێمن، ليس لدينا سوى عدد محدود من البندقيات الإنگليزية وبعض الرشاشات التي غنمناها في معركة گلي زاخو في الشتاء الماضي من الفوج المتقدم الذي حاصرناه لثلاثة ايام وإستسلم فغنمنا ما كان لديه من سلاح خفيف ومعدات كالعتاد والبطانيات وأجهزة اللاسلكي وأرغمنا افراده على حمل غنائمنا الى مقراتنا على ظهورهم حتى مقرنا في قرية بيزهي لقاء إطلاق سراحهم وإستحلافهم بألا يعودوا لمحاربتنا مرة أخرى.

لم يقتنع المطران بما سمعه، فعاد يؤكد له ثانية:

– قاسم، انها معركة غير متكافئة، ستخسرون فيها. لقد رأيت بأم عيني صفوفاً لا تنتهي من الدروع والدبابات والمجنزرات والناقلات والمدافع التي تسحبها الشاحنات العسكرية، ثم ماذا عن مئات المرتزقة الذين استُقدموا وهم متعطشون للنهب والسلب والحرق، انا لا أرى كيف يمكنكم الصمود بوجههم؟

– كەسێمن، نحن نعرف إن المعركة غير متكافئة من حيث العدد والعدّة، بالفوج المرابط في باتوفا يزيد ملاكه على الالف جندي مزودين باحدث ما انتجته المصانع البريطانية والسوڤييتية من الدبابات والمدرعات يساندهم سلاح الجو بطائرات الهوك والهنتر والميگ، ونحن نعرف محدودية عددنا الذي لا يتجاوز الخمسمائة پيشمەرگه ومعظمهم قرويون

من القوات الاحتياطية للثورة لا يملكون غير البندقيات الانگليزية التي غنمناها من المخافر الحدودية وشرطة الكمارك ولكن ايماننا بالنصر المؤزر لا يتزحزح، لأن لنا قضية عادلة ندافع فيهعا عن أرضنا ونذود عن شرف كُردستان! ثم إن القيادة العسكرية للثورة وبالتعاون مع منظمات الحزب قد إتخذت بعض التدابير والإجراءات اللازمة، منها إن الذي يملك بندقية ولايرغب لأي سبب كان المشاركة في الدفاع، عليه أن يسلمها الى قيادة الهيز ليستخدمها متطوعون ممن لا سلاح لهم. والذين باعوا سلاحهم أو سلموه الى الحكومة منذ بدء الثورة عليهم ان يبتاعوا سلاحاً مماثلاً. كما فرضت على كل فلاح حملاً من الحنطة كضريبة للموسم الحالي يتم خزنه في الكهوف والمغائر الجبلية في المناطق المحررة مؤونة للشتاء القادم لإدامة الثورة.

هزَّ المطران رأسه وهو يتبادل النظرات مع الخوري وقاسم غير واثق مما سمعه منه قائلاً:

– قاسم، المنطق العسكري يقضي بأنكم ستخسرن المعركة والمنطقة بأسرها. إن مواجهة فوج كامل يسنده هذا العدد من المرتزقة الذين اطلقت لهم الحكومة العنان للنهب والسلب ليس هيناً وآمل ألا تعتمدوا على المعنويات فقط!

أجابه قاسم بينما الخوري يستمع اليهما وهو متفق مع المطران في تخميناته ورأيه:

– ألا تقول الآية الكريمة «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن ربها...»، إننا سنفسح لهم بالتقدم الى خيزاقاك ونستدرجهم بذلك الى الفخ الذي سوف لن ينجوا منه! إنك اصبت كبد الحقيقة فنحن عاجزون عن قتالهم على خط جبهوي ولكن لحرب العصابات سننها وقوانينها لا يتحرك فيها الجيش النظامي بالسرعة المطلوبة في حرب من هذا النوع إنها ستكون حاسمة وليس لنا فيها خيار الخسارة لأنها سترسم خط الحدود الفاصل بين المناطق المحررة وتلك التي إحتلها الجيش، رغم محاولاته في دفع خط جبهة القتال في عمق أراضينا المحررة. واذا ما إنتصرنا،

وسننتصر بإذن الله، ستبدو معارك السليڤاني وگلي زاخو تخرصات بسيطة إزاءها!

ثم اخذ المطران يتساءل عما سيفعلونه بالقتلى وأين سيعالجون جرحاهم بدون مستشفيات ولا علاج!

أجاب قاسم وقد غلب عليه الجانب الفلسفي:

– كەسێمن، نحن الكُرد نؤمن بحكمة، نسميها حكمة «من گرتي» (الفرضية) وهي تلائم واقعنا!

إستفسر المطران من الخوري:

– هل سمعت بمثل هذه الفلسفة؟ ألم تدرس آرسطو وأفلاطون من الفلاسفة الاغريق ثم فلاسفة أوروپا في العصور الوسطى والحديثة هل سمعت بمثلها؟

أجابه الخوري وقد تملكته الدهشة من هذه الفلسفة الغريبة التي لم يسمع بها قط:

– سيدنا، لنترك لقاسم المجال ليشرح لنا وجهة نظره!

إبتسم قاسم وهو يعرف إن الموضوع شائك وطويل قائلاً:

– نحن الكُرد نفكر كالآتي: إذا كان لي بيت وقصفته الطائرات وتهدم على ما فيه، أقول في نفسي: ما زالت العائلة سالمة «من گرتى من ئەو خانى نەبوو» (النفرض أني لم اكن املك ذلك البيت) أو إذا كان لي إبن وإستُشهد على يد الجيش أو الجحوش، أقول: ما زال سائر افراد اسرتي سالمين، «من گرتى من ئەو كورِ نەبوو» (لنفرض أنه لم يكن لي ذلك الإبن) وهلم جرّا! إنها حالة نفسية إعتدنا عليها منذ بدء الثورة، لقد دمرت الحكومة مئات المنازل على اصحابها وقتلت العشرات من شبابنا، فلو توقفنا عند كل حالة ورثينا وبكينا لما إستطعنا التحرك ومواصلة الثورة. هذا هو مختصر فلسة من گرتي!

إستغرب المطران هذه الفكرة سائلاً الخوري:

– علمت أنك كنت متبحراً في موضوع الفلسفة أيام الدراسة، هل لك ان تقول لي اين تصبّ هذه الفلسفة؟ أفي خانة الجوهرية أم في خانة

الوجودية؟ ونحن نعرف إن الديانات السماوية كلها تؤمن بفلسفة الجوهر وتعتبر الفلسفة الوجودية سفسطة وآيديولوجية غريبة!

أطرق الخوري برهة محاولاً ربطها بإحدى المدرستين قائلاً:

– علاقتها بالجوهر اوضح واقوى من علاقاتها بالوجود، لأنها نابعة من إيمان إنسان واثق بوجود الله، فلولا ثقته بالله والآخرة وقضية عادلة يناضل من اجلها لقلت انها تتغذى من الوجودية التي ترمي الانسان في بحر لا قرار له تتقاذفه أمواجه الهوجاء، وفضاء يعوم فيه بلا هدف. إن الذي يدفعه الى مثل هذه الحكمة إنما هو إيمانه بوجود نظام إلهي يدير هذا الكون بحكمة وعناية خارقة. ويطلق عليها في الفقه الاسلامي على ما أظن مصطلح «القدرية».

وبينما هم يسبحون في فضاء الفلسفة والسفسطة قطعت أحاديثهم صيحات من كپرات مجاورة لم يبلغهم منها غير:

– ... ژو پچوكا...! (... للأطفال...)

– ... نان وئاڤ... (... الطعام والماء...)

إستفسر المطران من مضيفه عن الهرج والمرج ظاناً للحظة أن شجاراً نشب بين عائلتين حول الصبيان:

– ماذا يدور حولنا؟

خرج قاسم ودخل مسرعاً مطمئناً:

– كەسێمن، إنهم الشباب يتهيأون للإلتحاق بالجبهة زرافات ووحداناً، وهم يبلغون نساءهم الإهتمام بالصغار وبعضهم يطلب منهن إعداد الطعام ونقله مع الماء الى الخطوط الخلفية.

الثلاثاء ٢٩ أيار ١٩٦٢

في التاسعة صباحاً وفد ملا صالح بالقوسي من مقر عيسى سوار يرافقه الشاب شعبان حجي سعيد وكلاهما عضوان في لجنة محلية زاخو للپارتي يحملان رسالة صغيرة مطلوية وقد أُحكم عليها شريط لاصق وبدون مظروف لم يزد حجمها عن حجم قمامة السيگارة الملفوفة وكأنها تعويذه أو إحدى

الرسائل التي يحملها الحمام الزاجل، وجد المطران صعوبة بالغة في فضها، وضع نظارتيه ذات الإطار الذهبي على أرنبة أنفه وشرع يتمتم لوحده:

سيادة المطران توما ريس المحترم

تحية طيبة وبعد،

أتمنى لكم وللخوري المرافق طيب الإقامة في ربوع منطقتنا المحررة، آملا أن تروا بأم أعينكم وتلمسوا لمس اليد حالة أهالينا المزرية في منطقنا المعرضة للقصف الجوي والمدفعي والحرق والسلب والنهب، يومياً، على أيدي الجلاوزة الحكوميين أو المرتزقة.

ولا شك إنكم الآن علمتم اننا تعرضنا هذا الصباح لهجوم عسكري غاشم لغرض احتلال مواقعنا الامامية في قرية خيزاڤاك التي تعرفت فيها عليكم والخوري المرافق. وبسبب عدم وضوح الموقف آنذك ارجأت مصارحتكم الى هذه الرسالة اليوم، بعد ان حدث ما كنا نتوقعه ونخشاه.

إن سياستنا تقضي بما يلي:

١– كلّ من يملك بندقية ولايرغب بالإشتراك في القتال في الجبهة أن يسلمها الى قادة الهيز لكي يستخدمها پيشمەرگه اعزل عوضاً عنه.

٢– أن يبادر كل من سلم سلاحه الى الحكومة أو باعه منذ بدء الثورة الى شراء سلاح مماثل، فأما أن يشارك بسلاحه في المعارك او يسلمه الى مقر الهيز.

٣– على كل فلاح ان يدفع حملاً من الحنطة لمقر الهيز كضريبة للموسم الزراعي الحالي، خصوصاً وأن الحصاد على الأبواب.

لذلك رأت قيادة الهيز أن قسطاً من هذه المسؤولية يقع على عاتقكم بأن تبلغوا فوراً في تعميم خاص على كل القرى المسيحية في منطقتنا بضرورة تنفيذ الفقرات الثلاث الواردة أعلاه، وبخلافه سيعرض كل من يخالفها الى أقسى العقوبات.

وتقبلوا شكرنا سلفاً

عيسى سوار، قائد الهيز

أعاد المطران نظارتيه الى جيبه بعد قراءة الرسالة، وناولها للخوري الذي أخذ يقرأها ببطء بالغ بسبب رداءة خط يد كاتبها والتعقيدات التي حلّت بها من جراء طيها ولفها، وجرت مناقشتها بصورة مستفيضة شارك فيها ملا صالح بالقوسي حامل الرسالة وموفد عيسى سوار للتفاوض حول مضمونها، إستهله المطران غاضباً:

– ماذا تريدون مني؟ لماذا لا تقولونها صراحة: إنك رهينة عندنا حتى تلبي هذه المطاليب، واذا لبّيت هذه، مَن يدري فلعلكم تقدمون لي قائمة غيرها غداً!

فأجابه الملا صالح معتذراً:

– كەسێمن، تصورناك واحداً منا متعاطفاً معنا، ولم نكن نعرف إن الإستجابة عليها تثير كل هذه العواطف!

– إذا كنت خائناً أو جاسوساً أو مخرباً أو مدسوساً من الحكومة فعاقبوني أنا، ولاتحمِّلوا رعاياي الذين في المناطق المحررة أوزاري، أرجوكم ألا تعاملوهم معاملة تختلف عما تعاملون أي فرد أو جماعة أخرى في مناطقكم!

– نحن نعلم علم اليقين إنك لست خائناً ولا جاسوساً لأن تنظيماتنا في زاخو توافينا بالتقارير عن مواقفك الشخصية وموقف المطرانية، كل ما نطلبه منك هو أن تساعدنا في هذه المرحلة الحرجة من نضالنا لأننا بحاجة الى مساندتك فكلمتك مسموعة ومُطاعة في الأوساط المسيحية في كُردستان. وبينما نحن جالسون هنا، لست ادري إذا كنت على علم بما يجري على الجبهة القريبة منا في خيزاڤاك. إن الحكومة شنت هذا الصباح هجوماً على مواقعنا بقوة قوامها فوج كامل بمدافعه ودباباته وحماية القوة الجوية يتقدمهم المرتزقة الذين صرفت انت ساعات قبل ليلتين معهم ومع العقيد عبد المجيد السبع الذي يقود هذه الحملة، ألا نستحق المساعدة؟

– المساعدة التي تطلبونها مني أدخلتموها في اطار كوني هنا رهينة، رغم إنكم تعرفون جيداً تحت أية ظروف تم إرسالي للقيام بوفادة الصلح بين الحكومة وصادقي برو، فأنتم لستم بغرباء عن أجواء زاخو السياسية والعسكرية، تعرفون الإبتزاز الذي يمارسه الچتا ضدي لدى الفوج والقائممقامية، فانا في زاخو بين سندانكم ومطرقة الحكومة وأحمد الله على أنكم تعرفوني وتعرفون مواقفي في المدينة ومنظماتكم تشهد بذلك، أما الحكومة فلا تعرفني وهي دوماً تتحين الفرص للإيقا ع بي وبرعاياي ولإتهامي وإتهامهم بالخيانة ومساندتكم وإيوائكم.

– كەسێمن، نحن لم نُدخِل مساعدتك لنا في أية أطر، نحن نفهم تماماً إن موضوع إرسالك للوساطة بين الحكومة وصادقي برو لم يتم بملء إرادتك ونعرف إنهم أرغموك عليه. ولذلك لم نتهمك بأي من هذه التهم منذ اللحظة الأولى، فأنت ضيفنا وهذه ديارك ومتى ما أمرت القيادة سنرافقك الى حيث تريد، ثم إن ما نطلبه من المسيحيين قد طلبناه من المسلمين أيضاً قبلهم!

– أخي ملا صالح، أنا لا أجد مشكلة في أن أكتب تعميماً على المسيحيين في المنطقة، ولكني أخشى أن يقع التعميم بيد الحكومة وبذلك أخلق مشكلتين الأولى لنفسي لأني لن استطيع، بعد ذلك، العودة الى زاخو ابداً، والثانية لرعاياي الذين ستتهمهم الحكومة بمساعدتكم، أتفهم قصدي؟

– كەسێمن، أتحسب إن هذه الثورة العظيمة التي تمتد الآن من زاخو الى خانقين جنوباً ومن سوريا الى ايران شمالاً ليست فيها أسرار اكبر بكثير من تعميم بسيط تكتبه سراً الى رعاياك؟ واذا بلغت الأمور هذه الدرجة من الخوف والتعقيد فسنذهب أنا وانت والخوري ونسكن في قريتك الجميلة أرادن! ما رأيك؟

– أرادن الجميلة! حقا إفتقدتها! لم أذهب اليها منذ أن عدت من أمريكا!

– امريكا؟ متى ذهب إليها؟

– نعم، تعيّنت هناك سنة ١٩٥١ وعدت منها سنة ١٩٥٧ عندما إنتُخبت

مطراناً لزاخو، وامضيت فيها سبع سنوات أعمل في خدمة خورنة كلدانية في ولاية مشيگان.

– أتقصد أن هناك كلداناً من العراق في أمريكا؟ ماذا يعملون هناك؟ وكيف احوالهم؟

– إنهم من العراق عموماً ومن كُردستان خصوصاً ومن تلكيف بالذات، هناك منطقة كاملة يسكنها هؤلاء يطلق عليها إسم نيو تلكيف! لهم كنيستهم ومحلاتهم التجارية!

إلتفت ملا صالح الى شعبان وقاسم وهو يقول لهما:

– بخودێ، تلكێپی زۆر زیرەكن! هەی مالآته، چاوا پێشیا وان گەهشت ئەمریكا؟ (وترجمتها: والله التلاكفة شجعان أنظر كيف وصلت طلائعهم الى أمريكا؟)

ثم واصل مردفاً:

– ما شاء الله، مطراننا قد جال الدينا كلها، هل تعرف كەسێمن، إني كنت في أرادن قبل شهرين وكان قائدنا البارزاني فيها مدعواً في بيت مام ججو فنحر له الذبائح وأقام وليمة كبرى على شرفه؟

– ماذا تقول، إن مام ججو الذي تعنيه هو من أقاربي! ألعل البارزاني متواجد في منطقتنا؟

– نعم، كان في أرادن قادماً من سەرسنگ لغرض تشكيل الهيزات العسكرية وبث النخوة في الشباب للإنضمام إليها وتوحيد صفوف الأهالي للمقاومة في بادينان.

بعد هذا النقاش الودي أصبح موقف المطران مرناً فإستجاب لما أرادوا فأملى سيادته على الخوري رسالة جوابية الى عيسى سوار يسأله فيها حول بعض الجوانب التطبيقية لرسالته:

سيادة الاخ عيسى سوار قائد هيز زاخو المحترم

تحية طيبة وبعد،

إستلمت ببالغ الفرح رسالتكم هذا الصباح وتدراستها مع الخوري. ورغم الصعوبة البالغة التي تكتنف تنفيذها إلاّ ان لي

بعض الملاحظات بشأنها لاسيما من ناحيتها التطبيقية إذ لا أرى كيف سيتم ذلك في الظروف الراهنة:

ففيما يخص الفقرة الأولى: ليست لي أية معارضة في إشتراك المسيحيين في الثورة بسلاحهم فلهم ملء الحرية في ذلك ولنا منهم في صفوفكم العديدون منذ البدء وإن كنت في شك فاسأل الاخ اسعد خۆشەڤي فهو عالم بعدد الپیشمەرگه المسيحيين وغيرهم، وجلّهم من ابناء ابرشيتي، وإني شخصياً كما قد تعلمون أتعاطف معكم في نضالكم من أجل نيل حقوقكم أما إذا لم يتطوعوا في صفوفكم فيسلموا سلاحهم الى الهيز شرط أن يُعاد اليهم سلاحهم بعد إنتهاء الثورة، وهذا ما تقتضية العدالة.

أما فيما يخص الفقرة الثانية: فإن بندقية البرنو مثلاً على ما أسمع قيمتها مائة دينار والإنگليزية أقل بقليل، كيف يتمكن الفلاح القروي ان يأتي بمثل هذا المبلغ ليشتري سلاحاً مماثلاً ليسلمه للهيز إذا كان قد صرف ثمن بندقيته؟

وأما ما يخص الفقرة الثالثة: فلا مانع لدينا من أن يدفع كل فلاح سواء كان مسيحياً أو مسلماً أو ايزيدياً حملاً من الحنطة للثورة وذلك لمساعدة إخوانهم في المناطق المحررة كمعونة للشتاء القادم، شرط ان تكون الضريبة على الكل.

أخيراً، لي رجاء بسيط هو ان تبقى هذه الامور سراً لدى مقر الهيز، لأن بعضاً من هؤلاء الفلاحين يسافرون الى المدن للمعالجة او التبضع وأخشى أن يتعرضوا لملاحقة الحكومة اذا أُفشي السر، وكذلك فيما يخصني ويخص الخوري لدى عودتنا الى زاخو.

ختاماً، تقبلوا سلامي وتمنياتي وتمنيات الخوري لكم بالصحة ودمتم موفقين.

توما ريس، مطران زاخو

ناولها الخوري الى المطران لإعادة قراءتها والتأكد من سلامتها ولما إنتهى وضع عليها إسمه وتوقيعه، وطواها بعناية ثم اعطاها الى الملا صالح لينقلها بدوره الى عيسى سوار.

منذ صبيحة هذا اليوم كانت تبلغهم أصوات إطلاقات بعيدة وإنفجارات قنابل ومدافع. إنها معركة تدور رحاها على مسافة منهم في خيزاڤاك وعلى ما زعموا إن الجيش يتقدمه المرتزقة زحفوا نحو القرية ليسلبوها ويشعلوا النيران فيها، وإستقبلهم الپيشمەرگه بصاليات الرشاش ويظهر أنهم اوقعوا بهم خسائر فادحة وإستنجد الجيش بالطائرات فحلّقت على المنطقة طويلاً الى ساعة متأخرة ولم تفتأ تقصف وتحمي الجيش وعند المساء لم تسفر المعركة إلاّ عن خسائر بين الجيش والموالين المرتزقة، لكنهم لم يعرفوا عدد الضحايا بالضبط.

بعد الظهر قدم ستة پيشمەرگه من الرعايا المسيحيين من قرية شرانش يتقدمهم عمانوئيل سندي يظهر أنهم سمعوا بما جرى للمطران والخوري فجاءوا مستفسرين. بعد الغذاء كلّمهم قاسم على أن المطران والخوري موضع احترام الثورة وهم في أياد أمينة. فعادوا على أعقابهم مطمئنين الى الجبهة.

قبل النوم سارع الخوري الى دفتره يدون فيه هذه الأسطر:

«في التاسعة مساءً، قدم سعاة من بعيد أو قريب، كل يتحدث بإعجاب عن أعمال البطولة التي يقوم بها الپيشمەرگه: هناك قتلنا مرتزقة وهناك عدداً لا بأس به من جنود، وفي موضع آخر إستولينا على معدات حربية... مفاخر يُستقى بعضها من الواقع وبعضه الآخر من نسج الخيال، لاسيما الآمال التي يعلقونها على حصولهم على مطاليبهم».

لم يكن الخوري على إستعداد لسماع هذه الأخبار فقد إعتبرها من باب المبالغات التي يروجونها لرفع المعنويات، ومعه بعض الحق بسبب ما عاينه من آلات الحرب التي زجَّ بها الجيش في المعركة.

الاربعاء ٣٠ أيار ١٩٦٢

كان كل شيء يسير على ما يرام حتى بعد الظهر عندما قدم أحد اقطاب

الحركة في المنطقة ويدعى على هالو بوصەلى، وعلي هذا شخص خرج من العدم أو تقريباً، وارتفع الى قمة الشهرة بما أتاه من بطولات، كان راعياً أجيراً في إحدى القرى القريبة من بوصەل ضيعته قبل أن يلتحق بالثورة، تجاوز العقد الرابع من عمره، نشيط حي ذو نظر ثاقب يتكلم بطلاقة وإقناع. إنزوى بالمطران والخوري قائلاً للمطران:

– كەسێمن، ان الحزب غير راض على ما قمتما به وإن العمل لخطير جداً يستحق أقصى العقوبات!

ردَّ عليه المطران بشيء من الحدة:

– لقد أطلعت القائد عيسى سوار على كل كبيرة وصغيرة في هذا الأمر من خلال مبعوثيه ملا صالح وشعبان حجي سعيد ولا طاقة لي بإعادة ما قلته لهما وتكراره.

– كنت مع عيسى سوار قبل ساعتين بعد إنتهاء المعركة التي دحرنا فيها قوات الجيش في خيزاڤاك الى الوراء بعد ان كبدناهم الخسائر الفادحة، ستأتينا تفاصيلها غداً. وكان عيسى سوار يهدد ويتوعد اذا تماطلتما في تلبية مطاليبه!

– أولاً، أهنئكم على انتصاراتكم في المعركة، وأقولها صراحة اني لم أكن أتوقع هذه النتائج الباهرة! فلقد سمع الرب دعائي وصلواتي، ولكن لست ادري ما العمل؟ أأسمعك انت أم انتظر رد فعل عيسى سوار؟

– لقد كلفني عيسى سوار بعد أن عاد مبعوثاه إليه بأن ابلغكم أنه كان منشغلاً في دحر عدوان الجيش ولم يولِ المسألة الإهتمام اللازم في حينه، والآن يطالبكما كخطوة أولية ولأظهار حسن نيتكما ولشجب ما قمتما به أن يبادر المطران بكتابة تعميم الى كافة المسيحيين ليدينوا بالولاء للثورة وان يوفروا مائة بندقية ومائتي حمل حنطة للثورة.

– علي! أتعرف ماذا يسمى هذا التهديد؟ لعلمك انه يسمى الابتزاز! وهل تعرف متى كان متفشياً في العراق آخر مرة؟ لعملك ايضاً، في زمن الولاة العثمانيين المتفسخين، إن هذه الاساليب المتخلفة ستضر بحركة قومية تطالب بحقوق مهضومة لشعب بائس مضطهد، اني علي يقين من

ان هذا العبء الثقيل الذي تحمّلون به أكتافي واكتاف رعيتي إنما هو قرار محلي غير صادر من القيادة وهي ستلغيه لو علمت به لأني على ما أسمع إن البارزاني رجل يبغي العدالة ويمارسها، ثم إن ما قمتُ به لم يكن موجهاً ضدكم وإنما أرغمتني الحكومة عليه وانتم تعرفون ذلك جيداً، تصور ماذا كان سيحل بي وبرعاياي لو رفضت بينما أنا تحت رحمتهم؟ أليس عدد الذين خانوا الثورة بالعشرات لا بل بالمئات؟ وعند عودة بعضهم الى صفوفها تغفرون لهم زلتهم وهم الذين حملوا سلاح الخيانة والإرتزاق! هل إن زلّتي أكبر من خياناتهم؟

– على اية حال، انا ابلغتك، وقد أُعذر من أنذر!

وهنا دخل عليهم سليمان حاجي بدري قادماً من الجبهة ايضاً يرافقه رهط من الپيشمەرگه المتعبين وأخذ يبتسم للمطران والخوري ويسألهما:

– كەسێمن أهلا بكما في ربوعنا؟

لم يكن المطران في وضع يؤهله للإجابة على سؤاله فقد خيّمت الكآبة على وجهه وراحت انفاسه تضيق وأخذ يضرب كفاً بكف وهو يصدر الآهات والزفرات قائلاً:

– إنه إبتزاز واضح! ممارسة الحكومة للإبتزاز أمر مفهوم لأنها متفسخة ولكن أن يمارسه قادة حركة قومية تطالب بحقوق مهضومة لشعب مضطهد فهذا كفر! أليس رعاياي المسيحيون جزءً من كُردستان؟ عاملوهم كغيرهم! كيف أكتب مثل هذا التعميم؟ وبماذا سأخاطبهم؟ وكيف ارضي الله وأنقذ نفسي من توبيخ الضمير في قيامي بمثل هذا العمل؟ كيف اقول لهم إني خنتهم وأغوتني الحكومة حتى وقعت في شراكها؟ يا إلهي ادعو اليك ان تلهمني لأعمل لما فيه خير رعاياي!

لم يكد المطران ينتهي من عتابه وتذمره حتى نهض علي هالو وهو يسدد بندقيته الى صدر المطران يهم بقتله، فسارعه سليمان حاجي بدري لينتزعها من يديه وهو يكيل له السباب:

– ما هذا؟ أتعرف ماذا تفعل أيها الوغد؟ أتريد ان تقضي على آمال الحركة الكُردية؟ إن هذا الرجل على ما يبدو من بساطة وطيبة قلب أقوى

مما تتصور. حماقات أمثالك أوصلتنا الى هذه الحال!

ثم إلتفت الى من حوله وقد ثارت ثائرته:

– أرأيتم ما كاد يفعله هذا النزق الأحمق؟ إن قتل هذا المطران ليس أقل جرماً من قتل مار شمعون والقتول الجماعية التي إستهدفت مسيحيي كُردستان على يد مرتزقة الدولة العثمانية، إن مثل هذه الأعمال المرتجلة اضاعت علينا خمسين سنة من النضال العادل، فمنذ ذلك الوقت فقدنا تعاطف الغرب، أخذ العالم المتمدن ينعتنا بالتخلف. إني أرى إن هذه اكبر جريمة ترتكب بحق الشعب الكُردي!

ثم أردف:

– سلاح الثورة ليس لقتل رعاياها بل للدفاع عنهم! انزع سلاحك الآن فأنت لا تستحق حمل بندقية الثورة!

بدأ علي بتسليم بندقيته وحل محازم عتاده وألقاها أمام سليمان وهو يقول:

– لم أكن انوي قتله، إنما تخويفه!

ردَّ عليه سليمان بحدة:

– تسديد البندقية بحد ذاته جريمة.

– والله إنما قصدت تخويفه!

– أبناء كُردستان يجب ان يعيشوا احراراً دون خوف، انما قمنا بالثورة لتحريرهم من خوف العدو وتهديده. ما الفرق بيننا وبين العدو اذا فعلنا ما يفعله؟

– متى سأسترد سلاحي؟

– في مثل هذا اليوم بعد اسبوع. هذا عقابك لكي لا تعتدي على أحد ثانية بإسم الثورة!

– أطلب المغفرة!

– إنك نسيت أو تناسيت امر البارزاني بحماية الأقليات بصورة خاصة.

– ارجوك مسامحتي! فقد اخطأت.

– عليك ان تتخلص من العقلية القديمة، عقلية الإعتداء والابتزاز، لقد ولّى زمان «فەلێ من» و «باخوێ من»، نحن إخوة متساوون!

ثم اعقبه قاسم مخاطباً الحضور:

– هذا إعتداء صارخ على حرمة بيتي وسمعه آلي وعائلتي. إن الإعتداء على ضيفي إنما هو اعتداء على بالذات.

ونهض الى بندقيته، فهاجمه القوم وأرغموه على الجلوس وهدّأوا من روعه حتى إستكان.

دخل الغلام يحمل اقداح الشاي. ووضع واحداً امام كل من الضيوف، فأطبق صمت مشوب بالوجوم على الجميع لم تقطعه سوى رنات الملاعق الصغيرة في الأقداح، بينما إنكمش علي هالو يفكر في الحماقة التي كاد ان يقترفها دون روية، وفيما سيكون جوابه اذا ما علم عيسى سوار بأمره، فقد ارسله لمفاوضته لا لقتله. وما كان منه إلاّ أن اخذ يتخافت معتذراً للمطران مبدياً أسفه وندمه على ما صدر منه، ثم توجه الى الخوري يقول له:

– تنتابني حالات نفسية لا أستطيع السيطرة على اعصابي، أتهور فيها منذ أن كنت صبياً!

بعد حين من السكون والسكوت المطبق هدأت العاصفة، والمطران ما زال يفكر في هول ما جرى، سكت برهة وهو يطرق في وجه علي ثم قال:

– كدت تقتلني!

– كەسێمن، ارجو المعذرة لقد اذنبت بحقك!

ثم دخل الخوري وسليمان في حديث طويل عن أصله وفصله علم منه سليمان أن الخوري إبن صديقه «آپيسير داود» الذي كان معه ضابطاً في جيش الليڤي، فتوثقت عرى مودتهما وإنقلب المجلس الى مجلس فرح، وسليمان يدعو الخوري «برازا» اي إبن اخيه، والخوري يدعوه «مام» أي عمه.

وإستحلفهم سليمان ألا يبوح أحد بما جرى.

ثم عاد المطران الى حديثه يتباحث مع سليمان لوحده:

– سليمان اخي، اني ارى ان توفير مائة بندقية في هذه الظروف مسألة غير واقعية، ثم اني لا أود ان يقترن إسمي واسم المطرانية بمثل هذه الصفقة. اقتلوني هنا، فخير لي ان أموت من ألا اعود الى زاخو!

– كەسێمن، أنا متفق معك انها صعبة ليس فقط من حيث توفير المال

لشرائها وانما لا أرى ان هناك مائة بندقية صالحة في المنطقة كلها. هل تعلم إن سعر البندقية قد تضاعف أضعافاً منذ إندلاع الثورة في الخريف الماضي، فلو حاولت قيادة الثورة نفسها لما توفقت في الحصول عليها!

– سليمان، انت تفهم الأمور اكثر من غيرك، تصور وضعي أمام رؤسائي: البطريرك والأساقفة، عندما تنتشر قصة قيامي بشراء الأسلحة. اني أفضل الموت على تشوية سمعتي وسمعه مطرانية زاخو. انا رجل دين لا تاجر اسلحة؟

صمت المطران برهة وسليمان قد أخفض طرفه يفكر فيما يقوله ثم أردف مكرراً:

– انا رجل دين لا تاجر اسلحة!

إلتفت إليه سليمان مبتسماً:

– وماذا عن الحنطة هل تتاجر بها؟

– أستحلفك، كيف لي ان اوفر مئتي حمل حنطة واقوم بتأمين ايصالها الى مقر الهيز في أرمشت في ظل ظروف الحصار هذه دون ان تعرف الحكومة بما جرى؟ ألا ترى أن الناس لا يثقون بأخلص خلصائهم لأن عيون الچتا لهم بالمرصاد؟

– هلاّ وجدت حلاً وسطا لهذه الأزمة؟

– سليمان، ابحث لي أنت عن حل سحري!

– كەسێمن، انا رجل عسكري لا أتدخل في الشؤون الإدارية، الحل الوحيد الذي يراودني هو ان تشرح هذه الأمور لأسعد لدى لقائك به.

– ماذا إذا ساند أسعد موقف عيسى سوار؟

– عندئذ ترفع قضيتك الى ملا مصطفى!

– وماذا اذا دعم موقفهما هو الآخر؟

– إنه المرجع الاخير، عندئذ انت تواجه مشكلة كبيرة.

– وكيف تراني اخرج منها؟

– كەسێمن، ملا مصطفى رجل عجمت الحياة عوده، انه رجل واقعي لا

يرضى الا بالعدالة.

– حسناً، طبق عدالته على قضيتي!

– كەسێمن، لماذا نستبق الأحداث، ألا يكفي كل يوم وزره؟ لننتظر ما سيؤول اليه لقاؤك مع أسعد أولاً.

كان علي يتحيّن الفرص ليرجو المطران بالتدخل لدى سليمان لإستعادة سلاحه قبل مغادرته، وبينما سليمان يهم بالخروج لحق به علي هالو ملتمساً مناشداً، فأفهمه سليمان:

– تستلم سلاحك من عيسى سوار!

– ئەزبەنی...! (جعلت فداك...!)

– كەپێ و لێڤێخۆ بده ئێك! (أسكت!)

بعد ثانية من الهدوء قال له:

– تستلمه بعد ان تقول له الحقيقة!

وغادر سليمان ومن معه على الفور وعاد علي الى مجلسه مغموماً.

دعا المطران الخوري واملى عليه رسالة الى عيسى سوار.

طواها المطران وسلمها الى علي هالو، قائلاً:

– انا اعرف اني لن استطيع العودة الى زاخو اذا وقعت هذه الرسالة بيد الحكومة!

– سأوصلها الى عيسى هذه الليلة وله ان يتصرف بها!

– هل لك شيء آخر، يا علي؟

– اجل، عليكما ان تغادرا غداً أو بعد غد الى مكان آخر، فهذا الموضع قريب من الجبهة وفيه شيء من الخطورة عليكما.

لم يكن للمطران والخوري خيار، فقال الخوري:

– أمرنا لله!

غادرهما علي هالو مصدومين يطرق أحدهما بوجه الآخر. وبدأ الرجلان يتناقشان بينهما على ما فعلا إستهله الخوري مخاطباً المطران:

– كل شيء قمنا به في هذا الشأن كان كارثة إبتداء من زاخو وحتى لحظة إجتماعنا مع علي هالو قبل ساعة!

– أبونا، ما عساك ان تعمل، المنطقة تسودها الأحكام العرفية، جندي بسيط يستطيع ان يحيي أو يميت مَن يشاء.

– كانت هناك بدائل صعبة لما قمنا به، كقولك للقائممقام انا لا أستطيع القيام بالوفادة دون استشارة البطريركية، ونحن نعلم علم اليقين أن البطريركية كانت ترفض الطلب وبهذا كنا نتخلص من المسؤولية. لكنك استعجلت وإتخذت القرارات المرتجلة التي زجّتنا في هذا الموقف المحرج الذي لا مناص منه الآن!

أطرق المطران برهة ثم قال:

– أبونا، ضع نفسك موضعي، هل كان بوسعي ان أعصي اوامر الحكومة بينما نصف رعاياي في مناطقها ونصفهم الآخر في مناطق البارتيين؟

– انا اعرف ما جرى، نحن ما زلنا نفكر بأن الأمور كما كانت، لقد تغير ميزان القوي في المنطقة وعلينا من الآن فصاعدا أن نقيم وزناً للبارتيين في معادلاتنا.

– ماذا تعني؟

– ما أعنيه إنهم اصبحوا قوة لا يُستهان بها حتى من قبل الحكومة ويجب ان نكون على تفاهم وصلة دائمة بهم لتلافي ما حدث.

– هل تعتقد ان تدوم ثورتهم الى أبعد من هذا الصيف؟

– اعتقد إن ما جرى ويجري من أعمال عنف إنما هو البداية لكثير آت.

– ما الذي يحملك على هذا الإعتقاد؟

– لو بقيت ثورتهم في المدن لإنتهت بسرعة ولكن إنسحاب المئات من كوادرها الى الريف يجعل القضاء عليها صعوبة بالغة، ألا ترى هذه الاعداد الغفيرة من المدن والقصبات يعملون بإيمان متحملين الجوع والعري في هذه المجاهل؟

سكت برهة ثم اضاف يسأل المطران:

– أتعرف الشاب قيصر منصور حجي؟

– بلى، كيف لا أعرفه؟ ماذا جرى له؟

– علمت مؤخراً أنه التحق بالبارتيين في هيز دهوك، وعلمت ايضاً أنهم

أسندوا إليه مهمة مرافقة الصحفيين الأجانب في المناطق المحررة ليشرح لهم اهداف الثورة ومعاناة الشعب الكُردي. انهم يتوقعون قدوم مراسلي أجهزة الاعلام لتغطية أخبار القتال الدائر.

– ما لا أفهمه هو كيف سيدخل هؤلاء المراسلون الى المنطقة وهي مطوقة، ودول الجوار لا تسمح بدخولهم؟

– سيدخلون خلسة من سوريا أو تركيا أو ايران على ظهر البغال. فهذه الدول لا يعنيها كثيراً مقال يُكتب عن العراق، فسوريا مبتلاة بالإنقلابات العسكرية التي كان آخرها في آذار الماضي اطاح بالرئيس ناظم القدسي، وهي لا تعرف أهي ماضية نحو اليسار أم اليمين. وإيران وتركيا كلتاهما لا تنظران بعين الإرتياح لما يجري قاب قوسين او أدنى في العراق، فهما عضوان في حلف السنتو. هذه الدول مستاءة من سياسة الزعيم، لعلها تغض الطرف عما يجري على حدودها.

أدت هذه المناقشات السقيمة الى فتور في علاقاتهما حيناً ولكن الإحترام المتبادل بقى على حاله بين الرجلين.

قبل ان يطفئ قاسم الفانوس لم ينس الخوري أن يكتب في دفتر مذكراته اليومية ما يلي:

«كانت الساعات تنسلخ ثقيلة مملة نقتل الوقت بالحديث مع الطرش. لكن الواقع ان المعنويات عالية جداً، والقوم أصبحوا لا يخافون شيئاً من التضحية ويتحملون كل أنواع الحرمان، انه لهدف سام ولا شك هذا الذي يسعون اليه. وكنا نلاحظ إعجاب القوم بأنفسهم وسلاحهم، فالكل عدا النساء والأطفال الصغار يحمل السلاح... ربهم سلاحهم!

إن العلائم الاولية ليست في صالحنا ورأينا الشر في أعين بعض من القوم، ما العمل والى أين المفر؟ اخذت أقلِّب الأمر من كل وجوهه فلم أجد مفراً ولا موضعاً للأمل فحتى الهرب لا يفيد، وقُدم لنا العشاء فلم أتمكن أن اذوق لقمة واحدة... وأرِقتُ الليل كله وعرفت شيئاً من الآلام الجسمانية.»

6

الى أسعد خوشەڤي

الخميس ٣١ أيار ١٩٦٢

بعد ليل مرير من الكفاح مع النعاس والأفكار المقلقة السوداء إستيقظ المطران والخوري على بكاء الاطفال الجياع وعويلهم، في كپرة مجاورة، وكان قاسم قد سبقهما فأعد فطوراً بسيطا يتألف من اللبن والخبز والشاي وأخذ يتعذر لهما:

– كەسێمن، الحصار الاقتصادي يشتد علينا يوماً بعد يوم منذ بدء الثورة، لاسيما منذ معركة ئاڤگەنى التي فيها دحرنا العدوان قبل اسبوعين. فلا يمكننا شراء المواد الغذائية الضرورية لأن الطرق الى زاخو قطعتها الحكومة. فهذا الشاي يُهرَّب الينا من تركيا ونوعيته رديئة لا تضاهي شاي سيلان الذي يُستورد في العراق والذي إعتدنا مذاقه. أما السكر فقد أصبح نادراً في هذه المجاهل، بعض الناس هنا لجأوا الى إستعمال الزبيب في الشاي بدلاً من السكر!

رفع المطران طرفه الى السماء شاكراً:

– قاسم، نحمده ونشكره على هذه الحال! هذه الحالة ولا غيرها.

ثم إستطرد يسأل مضيفه:

– نحن في بداية الصيف، وهذه الكپرات تأويكم ثلاثة او أربعة اشهر اخرى قادمة، ولكن كيف ستتدبرون أموركم عند بدء فصلي الخريف والشتاء تحت المطر والثلج؟ هل فكرتم بالمستقبل؟

– كەسێمن، أوتظن أن تدوم هذه الحرب الى الخريف؟ فنحن نحرز الإنتصار تلو الانتصار في معاركنا مع الحكومة، وإني أرى انها مرغمة على التفاوض والإذعان للواقع. لقد بلغنا مؤخراً أن الزعيم أرسل العقيد حسن عبود آمر موقع الموصل للتفاوض مع البارزاني، والبارزاني قدم مذكرة يطالب فيها إطلاق سراح السجناء السياسيين الكُرد وفتح بعض المشاريع الزراعية والصناعية في كُردستان وان تكون اللغة الكُردية اللغة الرسمية في المنطقة.

– أهذا كل ما تطالبون به؟ إنها لعمري مطاليب متواضعة لا تستأهل كل هذا القتل والتشريد والدمار! مع هذا فالزعيم أيضاً ليست نواياه صافية لأنه يصدق كل ما يسمعه دون ان يحقق ويعرف ما وراء الأكمة. إذا وسوس له القوميون ان الكُرد إنفصاليون صدقهم. واذا أبلغه الشيوعيون أنهم حلفاء الإستعمار صدقهم ايضاً!

– كەسێمن، الذنب ذنبنا، فلو لم يكن فيما بيننا خونة موالون للحكومة يوسوسون في أذن الزعيم لأذعنت حكومته في الخريف الماضي منذ المعارك الاولى، نحن ايضاً مشكلتنا من الداخل، ألا يقول مثلنا «كرما دارى ژداريه! (دودة الشجرة تخرج من صلب الشجرة!)

إستأذن قاسم من ضيفيه ليذهب باحثاً عن المطايا لتأمينها لسفرهما. وما إن غاب عنهما حتى ألقى الخوري الملعقة محجماً عن الأكل:

– لقد مللت أكل الخبز واللبن طوال أسبوع!

قاطعه المطران وهو يحتسي اللبن بتلذذ مستغرباً:

– أبونا، هذا لبن الكۆچەر، إنه ألذُّ أنواع اللبن! إنه لبن الاغنام السمينة التي ترعى في هذه الجبال الخصيبة!

وأخذ الخوري يتذمر ويتحسر على الأوقات السعيدة والحياة المريحة التي أمضاها في زاخو والموصل ومَن يعلم فقد يكون في طريقة الى الموت وهو في حالة التعاسة هذه.

بعد دقائق عاد قاسم مستبشراً:

– توفقت في تأمين بغلين لكما للسفر!

ثم إلتفت الى النسوة يطلب منهن:

– گولێ بهارێ پیچەک نان وژاژی بو ریا مێڤانا دروست بکەن! (گولێ، بهارێ أعدوا شيئاً من الخبز والجبن المُثوَّم لطريق الضيوف).

وما أن إنتهوا من الفطور حتى وقف ثلاثة رجال مدججين بالسلاح في مدخل الكپرة، نهض قاسم ليستقبلهم بعناق طويل قائلاً:

– نحمده على سلامتكم، آه! كانت أمنيتي أن اكون معكم للمشاركة في المعركة أرجو المعذرة فقد إنشغلت بالضيفين الكريمين.

كان الرجال الثلاثة ما زالوا بالملابس التي إرتدوها قبل أسبوع، تراكمت عليها الأوساخ والأوحال ويبدو التعب والاعياء على سيمائهم واضحين، وقد لفحت الشمس محياهم وسواعدهم بعض الشيء فهم عائدون لتوهم من الجبهة في خيزاڤاك بعد أن ساهموا في دحر عدوان الجيش والمرتزقة.

تفرّس المطران في وجوههم ولم يعرف إلاّ واحداً منهم هو حنا طلو تعرف عليه خلال زيارته الرعوية الاولى عندما تفقد قرية ليڤۆ بعد رسامته الاسقفية قبل خمس سنوات. قدمهم قاسم الى ضيفيه يقول:

– كەسێمن، هؤلاء هم أبطالنا عادوا سالمين من المعركة. فهذا حنا طلو مركهي من قرية ليڤۆ قد تعرفونه ومعه حارسه كوكو. وأما الرجل الثالث فهو أشهر من نار على علم، انه ملا حمدي عبدالمجيد الكادر الأقدم في منطقتنا.

تدخل المطران مبتسماً:

– أهو رجل دين أم سياسة؟

اجاب قاسم ضاحكاً:

– كەسێمن، كل من يعرف شيئاً من القراءة والكتابة ندعوه ملا. فانا لا أعرف إن كان سابقاً رجل دين أم لا! ثم إن الدين والسياسة إختلطا عندنا في الثورة. ألا ترى ان نصف لجنتنا المحلية من الملالي، والحق انهم في طليعة النضال القومي والكفاح المسلح.

استبشر الضيفان بمقدم الپيشمەرگه الثلاثة من جبهة خيزاڤاك عندما اكدوا لهما انهم سيسعون لدى القيادة للتوسط بشأنهما. وبينما إنشغل

المطران مع حنا طلو، أخذ الخوري يتناقش مع ملا حمدي فعلم انه سوري، كريم المحتد، مثقف، مهذب، ذو آمال واسعة، وكان يتكلم بثقة عالية جعلت الخوري يعتقد أنه أحد موجهي الحركة الكُردية، ثم سأله الخوري ببراءة وبغير تكلف:

– ماذا تعمل في هذه المجاهل، أنت المثقف الذي يصلح ليكون رجل قلم اكثر من رجل حرب، أرى ان القلم بيدك امضى من هذه البندقية الروسية ذات الحربة القصيرة الصقيلة!

– أبونا، قدمت من سوريا لأشارك في ثورة شعبي الكُردي ولأدافع عنه في هذه الحرب التي فرضت عليه، فلا فرق لدي ان اكون من سوريا او العراق او تركيا او ايران، فانا قبل كل شيء كُردي وأؤمن بالكُردايه‌تي، والى جانب مساهمتي المتواضعة في المعارك اقوم بالتثقيف الداخلي في الحزب.

– وماذا عن الحزب؟ هل اعضاؤه بالمئات أم الآلاف؟ وما هو دوره في الحركة الكُردية؟

– الپارتي، وإسمه الرسمي الحزب الديمقراطى الكُردستاني حزب يعمل من أجل انقاذ كُردستان من الاستغلال الحكومي، وهو من اجل هذا يستغل كل الاساليب السلمية لبلوغ غاياته واهدافه، غير انه زّجَّ به في حالة الحرب هذه إضطراراً ودفاعاً عن ابناء كُردستان وحقوقهم المشروعة، وقد رفع مؤخراً شعار «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكُردستان»، نظرا لما لكُردستان من خصوصيات قومية وتاريخية، أما شعارنا العسكري فهو «كُردستان يان نەمان» (كُردستان أو الفناء). والپارتي ليس مقصوراً على الكُرد فقط، انه لكل ابناء كُردستان، فلنا فيه اعضاء نشيطون من التركمان والمسيحيين الكلدآشوريين يعملون في الخطوط الحزبية والعسكرية في أنحاء العراق كافة، وعن عدد أعضائه ليست لنا احصاءات دقيقة لكننا نعلم أنه بالآلاف، فكل كُردي يؤمن بحقوقه القومية نعتبره پارتياً، نحن لسنا حزباً عقائدياً بالمعنى الآيدويولجي. حزبنا خيمة واسعة يؤمها الجميع.

تطور الحديث بين الرجلين، واخذ أحدهما يثق بالآخر ويظهر إعجابه به، فسأله الخوري:

– سَيْدا، أرجوك ان تفهم وضعنا، فالمطران رجل كبير السن ولا طاقة له بتسلق هذه الجبال وهو غير معتاد على هذه الحياة الشاقة الخشنة ينام كل ليلة في بيت غريب، أرجوك ان تعطيني تقييم قيادتكم العسكرية لوضعنا، هل من خطورة على حياتي وحياة المطران في هذه المرحلة أم اننا سنُلقى في السجن لا لذنب اقترفناه وانما لأن الحكومة زجّت بنا في هذه المعمعة؟

– أبونا، والله لو كان مفتاح حل مشكلتكما بيدي لأطلقت سراحكما هذه اللحظة لأني عالم بانكما أُرغمتما على هذه المغامرة الخطرة. هناك قوى شريرة داخل فوج زاخو وبين المرتزقة تضمر الشر للمطران وتريد التخلص منه بدفعه في هذه المشكلة. فلو نجحت وفادة المطران وعاد ومعه صادقي برو، إتهموه بالتعاون معنا نحن العصاة لأنه إستطاع ان ينفذ الى مناطقنا دون أن يلحق به أذى مما يعني لديهم أن له علاقات مع العصاة، وإذا فشلت وأُلقي القبض عليه، كما حدث فعلاً، فذلك خير الحلول لهم. وإني ارى أنكما غُرر بكما وكان عليكما ان تكونا اكثر حكمة وواقعية من الإقدام على هذه المجازفة، لقد وضعتما الثورة الكُردية في مأزق، فنحن لا نعرف كيف نتعامل مع هذه الحالة، إنها حالة فريدة، فهذه اول مرة، وآمل ان تكون آخرها، نعتقل مطرانا يرافقه خوري أُرسل بمثل هذه المهمة، وانا لا أتصور أن حياتكما في خطر ما دمتما في مناطقنا المحررة. الخطر هو من الحكومة وليس من الثورة.

ثم إختتم جوابه بسؤال للخوري:

– ماذا قال لكما عيسى سوار بعد إستجوابكما؟ هل قال إنكما جواسيس أم مخربون أم ماذا؟

– قال لنا بكل هدوء انه يعتقد أن الحكومة غررت بنا كما أكد لنا إننا محظوظان لأن الحراسة لم تطلق النار علينا، وفي النهاية قال انكما رهن الإعتقال، وأن عليكما ان تُساقا الى اسعد خۆشەڤي لينظر في

مصيركما، ويبدو أنه كان مستاءً.

– الإستياء لم يكن بسببكما وإنما بسبب الحملة العسكرية الوشيكة على المنطقة، إنه كان يواجه صعوبة في صد فوج من الجيش وأرتال من المرتزقة لوحده دون ان يأتيه العون من هيزي دهوك وآميدي لأن علي خليل وأسعد منشغلان مرة أخرى بمشاكل منطقتيهما العسكرية، كما حدث في معركة ئاڤگەنى.

– هل إشتركت فعلاً في المعركة؟

– اجل، منذ اسبوع وأنا في الخطوط الامامية. أرسلني القائد عيسى سوار لرفع معنويات الپيشمەرگه.

– هل لك ان تصفها لنا؟

– كنا على علم بالإستعدادات التي كان الجيش يقوم بها منذ اسبوع، بعض معلوماتنا افادت انها مجرد مناورات وبعضها الآخر قال انه استعداد للهجوم، لذلك استدعى عيسى سوار بعض اهالي القرى من حملة السلاح لدعم الپيشمەرگه. وتم توزيع الأدوار بحيث أن عيسى سوار ومساعده هاشم ميروزي كانا في الجبهة الأمامية يعضدهما كل من محمودي حمري ولطيفي چينا، وتم إسناد الجانب الشرقي الى سليمان حاجي بدري وأحمد طيار وحنا طلو، أما جهة الجبل فكان يدافع عنها سلمان كەلوكي وعبدالرحمن دينو وعلي هالو وشريف مچولي. فمنذ الصباح الباكر للثلاثاء الماضي بدأ قصف المنطقة بالمدافع بضراوة بالغة، كانت القذائف تمر فوقنا لتسقط في خطوطنا الخلفية ذلك لقربنا من مواقعهم، بعدها تقدم رتل من الدبابات يتقدمهم مرتزقة محسن بەرواري ولطيف زيباري تساندهم الطائرات القاصفة، وإستطعنا دحرهم وكبدناهم إصابات كثيرة لكنهم أُبلغوا بعد الظهر بمعاودة الكرة لسحب قتلاهم وجرحاهم من ساحة المعركة ولم يكن هناك مَن يقودهم الى القتال بسبب العصيان الذي سرى في صفوفهم فلم ير آمر الفوج بُداً من المغامرة بروحه في قيادة مراتبه بنفسه ظناً منه أنه سيبث النخوة بينهم ويعزز معنوياتهم فهاجموا مواقعنا يتقدمهم الآمر على ظهر دبابة،

توفقنا في تعطيلها، وحاول مَن فيها الفرار ففتحنا عليهم النيران وأبدناهم جميعاً وكان الآمر أحدهم ولاذ الباقون بالفرار نحو المعسكر ونحن في إثرهم نلاحقهم فقتلنا عدداً لا يُستهان به من المرتزقة ومراتب الجيش وتعقبنا فلولهم حتى مقربة من باتوفا نجمع الغنائم، وتمكنا من الإستيلاء على كميات كبيرة من السلاح والعتاد بينها هذه الغدارة التي تراها في يدي وكذلك تلك التي غنمها حنا طلو!

ثم أردف يضيف:

– يبدو انهم لم يتعلموا من معركة ئاڤگەنى حيث دحرناهم قبل أسبوعين، لكن آمر الفوج ميخائيل بدرية أفلت من حصارنا بفعل القصف الجوي العنيف ولم نوفّق في اسره أو قتله لكننا قتلنا واحداً من مساعديه أما هو فقد جُرح جرحاً بسيطاً على ما بلغنا.

– أقلت انكم قتلتم العقيد عبدالمجيد السبع، آمر فوج باتوفا؟

– نعم قُتل، ومعه إثنان من مساعديه برتبتي ملازم أول ونقيب، وقد إستطاع العاملون في أجهزتنا اللاسلكية إلتقاط البرقية المرسلة الى فوج زاخو فيها ينعون مقتله.

دسَّ يده في جيبه الداخلي وأخرج ورقة صفراء ناولها للخوري قائلاً:

– تفضل أقرأها، أبونا.

إنتبه المطران الى الورقة التي تداولتها أيدي الرجلين مستفهماً:

– ما هذه الرسالة، أبونا؟

– انها البرقية التي تنعي مقتل آمر الفوج العقيد عبدالمجيد السبع!

– ماذا تقول! ألعله قُتل؟

– نعم قُتل في خيزاڤاك، وهذا نصها، أتريد ان تسمعها:

«بقلوب دامية ملؤها الأسى والأسف، تنعى آمرية الفوج الأول المرابط في باتوفا نبأ إستشهاد العقيد عبدالمجيد السبع يوم الثلاثاء المصادف ٢٩ أيار ١٩٦٢ وذلك اثناء قيامه بواجباته العسكرية في قاطع باتوفا.

المجد والخلود لشهداء جيشنا الأبرار.

عاش بطل الثورة الزعيم عبدالكريم قاسم.

عاشت الجمهورية العراقية الخالدة».

ثم طواها الخوري ودفعها الى ملا حمدي وهو يتمتم:

– أكاد لا اصدق عيني، هل هذا صحيح؟ ألعلها خدعة عسكرية او شيء من هذا القبيل؟

– إنها الحقيقة، فقد إلتقطنا برقية ثانية مرسلة الى أخيه الرائد عبدالحميد يواسونه فيها بمقتل اخيه تثبت صحة ما نذهب اليه، ثم ان معلومات مؤكدة وصلتنا عن طريق مخابراتنا أمس الأول تفيد أن جثته نُقلت من زاخو الى الموصل مسقط رأسه بطائرة هليكوپتر.

أضاف وهو يهز رأسه:

– هذا جزاء من يحفر لأخيه! انه حاول الايقاع بك وبالمطران، أليس كذلك؟

– يا لعدالة الله! يا لعدالة السماء! نعم حاول ونجح الى حدٍّ ما بإلقائنا في النار، لكن رحمة الله انقذتنا. هذا الذي عرفناه وجالسناه وجادلناه، أصبح الآن في عداد الأموات! لم يقتله سوى تهوره وتسليم قيادة اموره بيد المرتزقة المتعطشين للسلب والنهب وسفك دماء القرويين الفقراء.

نظر ملا حمدي الى ساعته فنهض مسرعاً يقول:

– الوقت أدركنا، أمامكم مسيرة نهار كامل، وأمامنا نحن مهام عديدة علينا إنجازها قبل العودة الى الجبهة، سنرافقكما الى القرية المقبلة حيث سنفترق.

ثم أضاف:

– المطايا جاهزة، ومرافقوكم بالإنتظار.

في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، ودّعا مضيفيهما عبدالكريم حامد وأخاه قاسم في مصيف ئەڤل وپيربلا وركبا البغال. وسار الركب ببطء الى مصيرهما المجهول: طرق وعرة وديان مخيفة رهيبة، خرير مياه لا ينقطع، ترى الجداول وانت ترنو اليها من فوق فتبدو كالزبدة البيضاء والخيوط الطويلة... هذه بانكه، وتبعد عن موقع المعركة نصف ساعة...

ساروا تحت ظلال الجوز والحور بمحاذاة السواقي الرقراقة السريعة. وكلما صادفوا معيناً أرووا غليلهم. وإتجهوا ناحية الشرق وعلى اليمين وجدوا بانكه

الثانية أو الثالثة، فلم يعودوا يتذكرون أسماءها، هجرها أهلوها بعد أن احترقت وتهدمت بالقصف الجوي قبل أسابيع، ولم يلاحظوا فيها غير بعض الكلاب السائبة التي ما زالت مصرّة على حراسة أطلال البيوت، ونبحت من بعيد إيذاناً بمطاردة الركب اذا تقدم او فرحاً بإستقبال أصحاب جدد بدلاً عن الذين تركوهم وهجروا القرية... وبدأ الطريق يصعَّد ويخلو من الماء والاشجار، الى أن بلغوا الساعة الحادية عشرة والنصف سواره ستەورێ، حيث ترجلوا واخذوا قسطاً من الراحة.

كانت الأوضاع العسكرية على جبهتي خيزاڤاك وئاڤگەنى غير مستقرة، والخوف الدائم يساور القيادة العسكرية للثوار من أن الجيش والمرتزقة قد يغامرون مرة أخرى انتقاماً لمقتل آمر الفوج والخسائر الفادحة التي لحقت بهم، وظلت هذه المخاوف تراود الملا حمدي وهو مستلق على الارض يسند ظهره الى صخرة وقد وضع غدارته الجديدة في حضنه، فسأله الخوري عما يجول في خاطره فهو يبدو مشغول البال، أجاب:

– أبونا، إن الوضع العسكري على الجبهة غير مستقر، ويجب ألاّ نطمئن الى النصر الذي حققناه في المعركة، أخشى ان يعاودوا الكَرّة.

– ماذا بوسعك ان تعمل؟

– لقد طال غيابنا أنا وحنا عن الجبهة، ولابد من الإستحمام وتبديل ملابسنا والعودة الى مواضعنا، فها قد رافقناكم مسافة إحتراماً لسيادة المطران، وإن أدلاءكم يوسف وهرمز وميرزا يعرفون ما تبقى من الطريق، وسنتوجه في أقرب فرصة لنقابل أسعد دفاعاً عنكما.

إطمأن الخوري بعض الشيء واخذ يشكره على مودته وتعاطفه معهما، فبعد ان رافقهم الملا حمدي ويوحنا طلو وكوكو موحلة من الطريق فارقوهم هنا ليتجهوا شرقاً وموكب المطران شمالاً. وساروا نزولاً فصعوداً، عرجوا غرباً ودخلوا گلي كەشان الغزير المياه والوارف الظلال. وظنوا ان نهاية العراق تتوقف عند إنتهائه. هذه قرية كەشان وقد أُلقيت عليها أربعة صواريخ إنفجر اثنان وتبقى إثنان وشاهدوا أحد هذين الصاروخين على ضفة النهر، يمر منه الأهلون دون خوف أو تردد.

في الساعة الواحدة والنصف والجوع ينهش أحشاءهم، بادروا الى التوت يعللون به جوعهم، واصبح دليلهم يوسف مرگهي مهذاراً لأنه استعاد ذكريات شبابه يوم كان يهبط من مركا ويصعد إليها. «هذا گيا گورا...!»، «وهذه هرنتا...!»، وقد بلغ منهم الجوع أشده. ولم يحملوا من الزاد غير خبز يابس وشيء من الجبن المثوَّم وضعته لهم گولێ زوجة عبدالكريم في كيس، وقد إمتقع لونه وتكرّج!

عاودوا السير دون شجاعة وقد شعروا بالتعب المنهك الشديد واصبح السير مملاً للغاية، وفي سيرهم يتجهون شمالاً فشرقاً فغرباً، وانحرفوا شمالاً وتركوا گلي كەشان نحو واد آخر.

سبحانك أيها الخالق، أينما يتجهون بأبصارهم لا يرون غير الجبال الشاهقة المكسوة بالغابات الكثيفة الموحشة.

وعلى حين غرة ظهر أمامهم ثلاثة مسلحين مع بغالهم المسرجة متوجهين نحو الجنوب، فتوقف ركب المطران ليفسح لبغالهم المرور لضيق الطريق.

توقفوا في فسحة جميلة مشرفة على وادي ئاليشك وقد مالت الشمس وإعتدل المناخ وأخذت نسمة عذبة عطرة ترتفع من قعر الوادي لتلامس محياهم، أحسَّ المطران بقشعريرة باردة تسري في جسمه من جرائها. وايقن ميرزا انهم بحاجة الى استراحة قصيرة، فأخرج كيس التبغ وورق لف السكاير ومدهما الى أكبرهم سناً ليقول له:

– ها ماموّ داگره، (عمَّر سيگارة ياعم).

وضع الرجل يده اليمنى مفتوحة على صدره وهو يجيب:

– سوپاس، ئەز ناكێشم! (شكراً، انا لا أدخن).

إستعاد ميرزا الكيس والورق ورطَّب حافة ورقة بلسانه وقطعها بأسنانه فاصبحت كالمنشار المرطَّب ثم ملأها بحفنة صغيرة من التبغ الأصفر ولفّها بإحكام وأولعها قائلاً بينما الدخان يصدر من فمه وأنفه:

– الى اين وجهتكم؟

– الى ئەڤل وپيربلا.

ثم إستدار الرجل المسن الى المطران يسأل ميرزا:

– أهذا هو المطران القادم الى طرفنا لزيارة صادقي برو؟

– بلى، وهو متوجه الى مقر اسعد خوّشەڤي.

– لنعد معكم إذن، فنحن انما قدمنا للذهاب به الى مقر الحاج، لأن محمد طاهر إبنه يود ان يأتي المطران لزيارته.

– المطران رجل كبير السن وهو في حالة شديدة من الإعياء ولا طاقة له بالتوجه نحو الحدود!

– إذن ماذا نقول لمحمد طاهر؟

– أخبروه انه متوجه نحو مقر أسعد، وكان منهوك القوى وهو بحاجة الى قسط من الراحة سيأخذه في مصيف ئاليشك، وإذا رغب محمد طاهر في زيارته فليأت الى ئاليشك.

– هل انتم هنا بأمر من الحزب؟

– بالطبع!

وتمكن ميرزا من اقناعهم بالعدول عن الفكرة.

وإفترق الركبان، وواصلوا السير بطيئاً، وحين لاحت لهم قمة جرداء، كانوا في اقصى الاعياء والاجهاد واشار الدليل يوسف أن قد اقتربنا من الهدف وبدأوا يصعدون بعض الشيء وبدت لهم اشجار الجوز ثم الأبقار وقطعان الماشية. اخيراً في الساعة الخامسة وخمس دقائق حلوا على خدر ضيوفاً وكان طريح الفراش لتأثره بجروح عديدة في ساقيه ورجليه من شظايا قنبلة مدفع إنفجرت بجانبه وهو يقاتل في معركة ئاڤگەنى. ورحّب بهم القوم، ولأول وهلة أحسوا ان الشعور السائد هو التخلص من هذه الحالة التعيسة. وفي المساء تجمع الاهلون في حلقة واسعة حولهم يفترشون الارض تحيط بهم الجبال التي وشحها الليل بسواده، لا يرون من السماء غير قبة صافية تتلألأ فيها النجوم الفضية، ودفع الفضول بعض الصبيان الى الدخول في نقاش حول هيئة المطران وصليبه وخاتمه الذهبيين الكبيرين وزيه الذي يختلف عن زي الخوري، ولا عجب فهذه المرة الاولى التي تقع اعينهم على رجل دين مسيحي. ويظهر ان المصيف استضاف ما يقرب من خمس قرى منها شلينێ وشيلانێ وصوريا وبيزهي وبێخباري، اخلى سكانها منازلهم ولاذوا هنا من

خطر القصف الجوي.

كانت الحركة الوحيدة التي يقوم بها خدر هي التقلب في فراشه الوضيع يميناً وشمالاً، ينفجر احياناً بلحن شجي تتفطر له القلوب حزناً يواسي به نفسه من شدة الالم منشداً على لسان أمه: «كورەبم، نەمينم، نەمايێ دايێ، خدرێ من لناڤ نڤينا بريندارە...!» (اصاب العمى والدتك، ولا عشت بعدك، خدر عزيزي جريح، طريح الفراش» مكرراً بين لحن وآخر ردته الرتيبة: «ئاخ دايێ... ئاخ بابۆ...».

بعد تفرق القوم اعدت اماكن لنوم الضيوف الذين سرعان ما غطوا في نوم ثقيل رغم تغير المكان والمناخ والمنام.

الجمعة ١ حزيران ١٩٦٢

بعد الفطور عاد مرافقوهم يوسف وهرمز وميرزا الى الجبهة. وقام الخوري والمطران بنزهة في الجبل يرافقهم الحارس الجديد إبراهيم. وصعدوا قليلاً وتوقف سيادته وسمح للخوري ان يتسلق مع الحارس. وصعدا واووغلا في الصعود متسلقين من قمة الى اخرى الى أن إنتهيا الى أعلى قمة من الناحية العراقية وقابلا الجهة التركية حيث الجبال الشاهقة التي ما زالت مكللة بالثلوج انها جبال تياري في هكاري! واثارت في الخوري شجناً ذكريات تلك المناظر الغريبة من بلد آخر كان فيما سلف موطن اجداده وبقية أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، تزاحمت الذكريات في رأسه وفكر برهة في اللجوء الى هذه البلاد، وإن كان المصير مجهولاً بين قوم معروفين بالصرامة والشدة. وفتح صدره للنسيم البارد والآمال العريضة. وعاد في العاشرة والنصف ليلتقي سيدته في فيءٍ غارقا في تأمل كأنه مخطوف الى إحدى طبقات السماء.

عاد الى رشده من نرڤانته وإقترح على الخوري ان يصليا المسبحة لأن امامهما وقتاً طويلاً قبل العودة. اخرج كلٌّ مسبحته وركعا على الأرض الخشنة واخذت الحبات تتدحرج بين اناملهما ببطء يطلبان شفاعة العذراء مريم «صلي لأجلنا نحن الخطاة...» ثم يختمان الاستشفاع بالدعاء الى الرب

«ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك... اعطنا خبزنا كفافنا اليوم... واغفر لنا كما نغفر لمن اخطأ الينا... نجنا من الشرير، آمين» ولم ينسيا أن يقيما دعاءً خاصاً متضرعين الى الله من أجل شفاء مضيفهما خدر.

وفي الثانية عشرة عادا إليه، حيث حلقات الزوار، بينهم كُردي من تركيا يحكي مأساته: إستضاف شخصاً مدة أربعة ايام وهرب من داره الى مناطق الحكومة سارقاً منه مبلغ ٤٦٢ ديناراً وكمية من الحلي الذهبية والملابس!

قبل النوم اسرع الخوري الى دفتر يدون فيه:

«يا للشعب المسكين متى سيشاهد نور التمدن. ان الشعب الكُردي يشعر بالأَنَفة وإستفاق على فرقعة مدافع الحرية مطالباً بحقوقه ولكن اذا إستلم قياد أموره، أترى بإمكانه ان يسوس ذاته بذاته!!».

7

عذاب الطريق

السبت ٢ حزيران ١٩٦٢

تنسلخ الساعات مملة مضجرة. منذ الصباح كانت تُسمع إطلاقات المدافع من بعيد. ما الخبر؟ لا أحد يعلم... لعل قافلة من الجيش اعتُرض طريقها فوقعت في كمين! الشائعات كثيرة. المبالغات اكثر. والقوم ماضون في تحديهم السافر للحكومة، والحكومة عازمة على القضاء عليهم بأي ثمن.

تحول المطران مع حاشيته من گلي ئاليشك الى گلي گەرين المصيف المجاور له تماماً في واد آخر، الفرق بين الأول والأخير أن الأول كثير الأشجار مزدحم بالسكان والصخب فهو طريق مطروق، والثاني لا ظلال فيه وارفة ولا حركة، عيبه الوحيد انه معرض للشمس والطائرات.

قبل النوم كتب الخوري في مذكراته هذه الأسطر:

«عبثاً ننتظر عودة حنا طلو وملا حمدي. أترى نقضي شهوراً هنا؟ فها قد مضي أسبوع علينا منذ مبارحتنا زاخو... متى العودة يا رب!!».

الأحد ٣ حزيران ١٩٦٢

ما أشبه اليوم بالأمس... ما أبطأ الزمن... وأي سمٍّ اشد فتكاً من البطالة... يقتلون الوقت بالتنزه وكأنهم المسّاحون أو مهندسو الجيولوجيا، يتسلقون القمم المجاورة الواطئة، من الشمال، الحدود على مرمى البندقية.

عند المساء حل ضيفاً لديهم الملا علي وهو من زاخو وقد إلتحق مع الپارتيين

بعد أن كان شيوعياً ثم إنقلب فاصبح من الإخوان المسلمين والآن هو أحد دعاة القومية المغالين المتحمسين يقذف حمماً كبركان هائج، يتلون كالحرباء. حذّر الخوري المطران من الدخول معه في نقاش جدي فهو قد سمع عنه من زاخو لكن سيادته إصطدم معه في جدال، وظهر عقم هذا الجدال. كان صرخة في واد ونفخاً في رماد...

سأله المطران مازحاً:

– شيء واحد يعسر عليَّ فهمه وهضمه، كيف إستطعت التقلّب بين الشيوعيين والإخوان المسلمين ثم اصبحت پارتياً؟

– كەسێمن، أتركني وحالي! كل ما في الأمر أني ركبت الموج! ففي البداية كان كل من له فكر سياسي قد جرفه المد اليساري الذي كان آنذاك يسمى وطنياً، فإندفعت معهم دون ان اكون عضواً في الحزب كبقية الناس فإلتصقت بي هذه التهمة. ثم هداني الله الى حزب الإخوان المسلمين الذي أسسه حاجي آغا في زاخو نكايةً بالشيوعيين والپارتيين بعد ان اقنعني صديق لي باني ماضٍ في طريق لا يتفق وديني ومعتقدي، أما الآن فقد عدت الى بيتي، عدت الى الأصل، عدت الى الكُردايەتي، وهنا نهاية المطاف فيما يخصني. أجل انا پارتي وسأحيا واموت پارتياً!

– ماذا عن عيالك؟ أتركتهم في زاخو؟

– كلا وألف كلا، لقد نقلتهم معي الى الاراضي المحررة! كيف اترك شۆخێ والأولاد هناك تحت رحمة الجيش والمرتزقة؟ اذا متنا فلنمت سوية واذا أمدَّ الله في أعمارنا فلنعش سوية مرفوعي الرأس ندافع عن امتنا ونستبسل من أجل حقوقنا!

– هل قلّدوك منصباً او كلفوك بوظيفة هنا؟

– أنا الآن كادر هذه المجموعة من القرى التي لجأت الى هذا الگلي، اقوم بواجباتي الحزبية على أتم وجه، واذا احتاجوني في الجبهة فأنا ماض إليها بكل فخر.

ثم أومأ الى كپرة صغيرة الى اليسار منهم قائلاً:

– شۆخێ والأطفال في تلك الكپرة منذ شهر، لقد سبقنا الآخرون الى گلي

ئاليشك ولم يبق فيه موطئ قدم، ولم أر بُداً من المجئ الى گلي گەرين لنصب كپرتي هذه.

ماذا عن المدرسة فيما يخص الأطفال والموسم القادم؟

– كەسێمن، لن يطول بنا المقام هنا، إنها اسابيع وسنعود الى بيوتنا واعمالنا في زاخو، ان الثورة ستنتهي بنجاح وسنعود قبل موسم المدارس. ألم تسمع إن المفاوضات جارية بيننا وبين الحكومة، ووفدها التقى ملا مصطفى لوضع اللمسات الأخيرة على الاتفاق قبل أسبوعين في سەرسنگ؟

– هل تثق بالحكومة ووعودها؟

صمت برهة يفكر في جوابه، ثم قال:

– إنها ظالمة! ما عسانا نعمل؟ أليس السلم أفضل من الحروب وهذه الحالة المزرية، سيشرب اطفالي الشاي وفيه السكر بدلاً من الزبيب ونتخلص من هذا الشاي التركي وتكون علب السكاير متوفرة فقد لجأت الى لفها منذ فترة مغادرتي.

غادر الضيوف، وبدأ المطران يحاجج الخوري:

– قلت إن ملا علي رجل متعصب ومتلون، انا لم أجد فيه ما وصفته به، لا بل العكس وجدت معشره لطيفاً!

– كنت على أحرّ من الجمر انتظر نهاية النقاش، خشيت حيناً ان يتطور الى جدال والجدال الى كارثة كما حدث مع علي هالو عندما عالج اقسام بندقيته مسدداً إياها الى صدرك ليقتلك ولولا تدخل سليمان حاجي بدري الذي عرف مني ان والدي كان زميله في جيش الليڤي، لإرتكب علي هالو حماقة لا تُغتفر. اقولها بصراحة ان نقاشاتك بحاجة الى لباقة ومرونة وشيء من الدبلوماسية!

قبل النوم، أخرج الخوري دفتره ليكتب فيه:

«ازعجنا الهواء ليلاً. والريح اخذت تعصف شديدة تنفخ في مظلتنا الواهية كالعفريت المارد... واخذ المطر ينهمر... وطار النعاس... واقبل الصبح حين هدأت الريح».

الإثنين ٤ حزيران ١٩٦٢

بلغ السأم من الخوري أشده... ما اوحش الغربة... لعل من الاهل من يفكر فيهم الآن! ما الذي يدور في خلدهم؟ هل هم في قيد الحياة أم قُضي أمرهم واصبحوا في عداد الاموات؟ والاصدقاء؟ لا بُدّ وانهم يتحسرون عليهم! ومن يدري لقد طال اسرهم وهم محرومون من امور كثيرة. لا كتب في حوزتهم للمطالعة! لا سكاير ينفثون دخانها آناء الليل واطراف النهار. والتغذية ليست بالكاملة المتكافئة، أعصابهم متعبة مرهقة حياتهم بدائية، يعيشون مع القوم ليل نهار، وان كان القوم يهتمون بهم حريصين على راحتهم مقدرين كرماء.

في الصباح قاموا بجولة يصحبهم كالعادة مسلح خوفاً من تعرض غريب لهم، أو لخوفهم عليهم من الهرب... هذا جبل كاتو يحجب رؤية فەراشين گزنخ ومروجها، وهذا جبل كورانش وكلاهما يكسوهما بعض الثلج، وهناك بسطة فسيحة على الشمال بمحاذاة الحدود لا بُدّ أنها مركا موطن المركهية ذات المروج... ووقفوا حيال جبال تياري، وشاهدوا عن بعد منابع الخابور وقريتي هيلمون وگيرامون التاريخيتين وأذكت اولاهما بعض الشجون في اعماق الخوري اذ تذكر انها مسقط رأس مار سهدونا الذي ولد فيها في نهاية القرن السادس والذي كانت لوالدته صديقة كُردية تقية إسمها (شيرين) كما جاء في كتابه «شمولاي دوباري» أي كمال السيرة، ثم ناحية الشرق منطقة بەراري بالا، والطود الشامخ جبل متينا البعيد حيث الموطن ومسقط الرأس.

جلس المطران برهة مسنداً ظهره الى شجرة جوز قديمة بينما الخوري والحارس منشغلان بقطف التوت في أسفل الوادي، عاد الخوري يحمل إليه شيئا منها ووجده غارقا في تأمل عميق فدعاه ليشاركهم في وليمة التوت، عاد المطران الى رشده وجلس الخوري بجانبه وإتكأ الى شجرة دلب باسقة بينما الحارس يفسح لهما لكي يتناقشا في امورهما الخاصة، كانت هذه احلى اوقاتهما لأنهما يشعران أنهما منفردان بعيدان عن الزيارات والمجالس التي تناقش فيها أمور غير مجدية لا ناقة لهم فيها ولا جمل ولكن عليهما ان يشتركا في الحديث جرياً على العادات العشائرية في المجالس.

سأل الخوري المطران عما كان يفكر فيه أثناء غيابه:

– رأيتك كالذي يضرب الأخماس بالأسداس، هلاّ وجدت حلاً للأزمة؟
– قلنا لهم في المطرانية إننا سنغيب يومين أو ثلاثة، وها نحن قد دخلنا في أسبوعنا الثاني، أليس من احد فيها يفكر بمصيرنا؟ أين الخوري حنا، ألا يأتي بالمرتبة الثانية بعدي من حيث الأقدمية! أتراه نائماً غافلاً لا يعرف ما يجري؟
– سيدنا، منذ ان ابعدت الخوري حنا الى قرية شيوز (سيجي) بالقرب من دهوك، قلما يتدخل في ادارة الأبرشية ثم انه لا جرأة له تؤهله للتكلم مع جندي بسيط، ألا تعرفه؟
– ماذا عن القس گوريال؟ أتراه لا يعلم هو الآخر؟ إنه دائم الاتصال بقرى المركهية حيث كان كاهناً لسنوات في ليڤۆ وناڤكەندالا وميركه سۆر وغيرها. أتراه لا يحرك ساكنا؟
– ألم تطلب منه ان يرافقك في هذه الجولة فإعتذر كما إختلق الاعذار كاهن قرية بيدار متذرعاً برفض زوجته وآل بيته! ألم يقل لك القس اسحق مازحاً انا لا أجازف في مثل هذه المغامرة فأُقتل وتترمل زوجتي بعد ان يُقضى عليَّ في مجاهل الجبال!
– أفهم إن للخوري أوراها كاهن مهمديك وشكەفت مارا أطال الله في عمره معافى، كبير السن ولا يجد في نفسه الكفاءة في تولي مثل هذه المهمة ولكن ماذا عن القس حنا قاشا راعي قرية قرەول؟ أليس شاباً موصليا جسوراً يتكلم العربية بدون لكنة. بمقدوره ان يذهب الى السطات المدنية للإستفسار عن مصيرنا؟
– القس حنا قاشا قد لا يعرف بالموضوع لبُعده، كذلك فيما يخص الخوري حنا راعي پيشخاپور وابن اخيه القس عمانوئيل خوشابا راعي قرية ئاڤزروك، فلو علم هذا الأخير لشكل وفداً من اعيان الگزنخية مثل شەنۆ وخەمۆ وذهبوا الى القائممقام للإستفسار على اقل تقدير.
– اجل، هذا خائف وذلك لا يعلم وماذا عن كهنة شرانش ويردا وسناط؟ أتراهم لا يعرفون بالموضوع وقراهم كلها في المناطق المحررة وقد ابلغناهم بواسطة الرجال الستة الذين قدموا للإستفسار عنا حالما عرفوا

بينما كنا في ضيافة عبدالكريمي حامد واخيه قاسم!
– الذين قراهم في المناطق المحررة يجب ألاّ تعاملهم معاملة غيرهم فهم لا يستطيعون التحرك لأنهم مشبوهون لدى السلطات بإيواء الپارتيين.
– ماذا عن الشمامسة؟ أليس فيهم من ينهي الخبر الى الجيش أو السلطات المحلية؟
– سيدنا، أترى السلطات المحلية والجيش لا يعلمون بمأساتنا، اقسم لك انهم علموا بالموضوع حال إلقاء القبض علينا عن طريق مخابراتهم ومرتزقتهم أليسوا هم الذين دفعوا بنا الى هذه التهلكة؟ لا ترجُ منهم خيراً!
– دعنا عن الكل، أليس بين الأخوات الراهبات من تعرف بما جرى، ألا يجدن في انفسهن الجرأة في إيصال الخبر الى بغداد والإتصال بالپطريركية؟
– سيدنا، قد لا يطول أسرنا، ونحن لا نريد إقحام البطريرك في هذه المعمعة، ثم انه إذا علم بالامر لإتصل بالسفير الپاپوي في بغداد والسفير بروما عندئذ ستقوم القيامة عليك ولأخضعوك الى مجلس تحقيقي كنسي انت في غنى عن مجابهته، دعنا نحل مشكلتنا على النطاق المحلي عن طريق بعض المطارنة الذين لنا فيهم الثقة الكاملة!
– ومَن تراه بهذه الجدارة، وبمن تقترح ان نتصل؟
– انا اقترح ان نتصل بالمطران عبدالأحد صنا، فهو شاب غيور أرى فيه الكفاءة لدى الجانبين الحكومي والپارتي، انه يعرف كافة رؤساء العشائر الكُردية ويتمتع بحرمة بالغة لديهم.
– وماذا عن المطران أندراوس صنا؟
– انه كفوء، لكنه في عقرة بعيد عن مسرح الأحداث.
اقبل الحارس صاعداً وقد ملأ منديلاً بالتوت بعد أن غسله في الساقية، وضعه امامهما مبتسماً:
– هذا ما إستطعت جمعه، لم أجمع إلاّ الكبير منه!
إنهالوا عليها جميعاً وشكره المطران على لطفه.

عند الظهر، اقبل شخصان احدهما زيباري إسمه جوهر والآخر سوراني يدعى كاكه احمد وبعد التعارف والنقاش ابلغاهما ان ارادة اسعد خۆشەڤي ان يحضروا الى المقر وكان سيادته متعباً لذا تردد طويلاً واخيراً رضخوا.

وفي الثامنة توجهوا نحو الشرق مبتعدين عن گلي گەرين شيئاً فشيئاً الى وديان سحيقة، وجبال شاهقة وظلال وارفة، واشجار الجوز في قعر الوادي وعلى السفحين مياه غزيرة وشدو خرير مخدر... بعد ساعة وصلوا قرية سولێ، وارادوا منهم المبيت فيها غير انهم رفضوا وكان بودهم لو وصلوا مصيفاً آخر في قعر واد عميق يدعى مصيف ئێكماله، وكانت الساعة تشير الى الخامسة والثلث مساءً.

قبل ان يضطجعوا أخرج الخوري دفتره وكتب فيه:

«وجوه غريبة علينا، قوم لم يسبق لهم ان شاهدوا مطراناً، لم نسمع كلام ترحيب وديّ كما لدى الأخوين حامد وقاسم أو لدى خدر، ونمنا ما بين اشجار الجوز والبلوط على ارض خشنة نوماً مضطرباً».

الثلاثاء ٥ حزيران ١٩٦٢

نهضوا باكراً جداً في مصيف ئێكماله، وجرياً على العادات الكُردية، جاء عمر بجفنة من اللبن وصحن صغير يطفح بالعسل الأبيض بلغ نقاؤه حداً أنك كنت ترى قعر الإناء بوضوح.

ثم جعل أمام كل منهم كوباً، وما إن أخذ يصب لهم الشاي حتى عاد أخوه شاهين من إعداد الدواب واطعامهم للسفر. شعر الخوري بشئ من الخجل لما ظنه من برودة لما حطوا الرحال لديهم أمس مساءً.

وفي السابعة والربع إتجهوا شرقاً فبلغوا قرية ئێكماله المهجورة التي يبدو ان عيون الطيارين قد اخطأتها فلم تُقصف بعنف، إما لصغر حجمها أو لعدم إدراجها على خرائط القوة الجوية فهي حديثة العهد نسبياً.

وساروا تحت ظلال الدلب والجوز في قعر الوادي، وكان الطريق رائعاً ذا جمال أخّاذ عنيف لحد الوحشة... وبعدها وصلوا قرية نزولێ حيث توقفوا قرابة ساعة لتبديل المطايا، وهاهم على ضفاف الخابور، بلغوا الحد الفاصل

بين قضائي زاخو وآميدي. والمشكلة بدأت هنا! كيف يعبرون؟ هناك شبه جسر معلق متحرك مرتفع تحمله ركيزتان فوق هاوية يجري الخابور دفّاقا في أسفلها، سُداه حبال كبيرة ولُحمته عوارض خشبية مرصوفة بعضها تكسر تحت حوافر البغال والخيل. كانوا يرون السكان المحليين يعبرونه بسهولة لا بل ركضاً، وعبر الشماس وقد أمسك بيده رائد شيخ وعاد ليمسك بيد الخوري ولكن ما أن سار بضع خطوات حتى دارت به الدنيا وأخذ قلبه يخفق وكأن المعبر يميد تحت قدميه ويسير في إتجاه معاكس لجري الماء كأرجوحة مجنونة. وتوقف دقيقتين او ثلاث ليلتقط انفاسه، ولما بلغوا الضفة الأخرى كان الدم قد نضب في وجهه واصابه الشحوب وركبتاه تصطكان ولاتقوى رجلاه على حمله! ومن بعد الخوري عبر سيادته، وكان هو الأخير يسير ببطء ممسكاً بحرص بيد محمود الذي لم يكن إهتمامه بالعبور كإهتمامه بنفث دخان غليونه الطويل...! وتوقف في الوسط وهمّ بالجلوس ثم عاود السير الى ان بلغ الضفة الاخرى، وكأنهم عادوا مرحلة من العمر شاقة وقطعوا عقبة كأداء. وحاذوا الخابور ثم جلسوا على ضفاف النهر تظللهم أشجار الدلب الباسقة الوارفة. وشاءت الصدف ان يجدوا في أول قرية بعض السكاير: واحدة وعشرين علبة! مَن كان يحلم بهذا. فقبل ايام ارسلوا الى تركيا شخصاً نقدوه نصف دينار وعاد صفر اليدين والآن أتتهم دون ان يسعوا اليها؟ كان إحتفاؤهم بهذه السكاير كإحتفالهم بيوم عيد...!

كانت هذه البقعة الجميلة على موعد مع الطيور والفراشات والحشرات، كأني بها مملكتهم، فالوقت ربيع وكل مقومات عيشها وتكاثرها متوفرة، والماء عذب صاف في الغدران المنتشرة على ضفاف الخابور، تؤمها الطيور لأطفاء أوار عطشها من العمل الدؤوب في بناء اعشاشها على الاشجار المجاورة والعوسجات الواطئة التي تغطي مساحات كبيرة على جانبي النهر. والحشرات هي الأخرى ساعية ودؤوبة لجمع مؤونة الشتاء القادم من رحيق الأزهار قبل فوات اوانها، والفراشات تغازل بعضها ناشرة عطرها وألوانها لأن أيام شبابها قصيرة!

في الثالثة والنصف إنطلقوا بإتجاه قرية كيستا وكان الطريق وعراً شاقاً:

صعود مستمر، قمة تليها قمة أعلى، وكاد الطريق يكون غير مطروق ودليلهم آقو الصغير. بلغ منه الاعياء أشده وظنوا أنهم أتاهوا طريقم، وأخذ المطر يهطل على المرتفع، في إعتقادهم بلغ ارتفاعه الألفي متر إن لم يكن اكثر، وإنتهوا الى قمة شاهقة تشرف على سلسلة جبال متينا وكأنها تلال واطئة، والخابور ينساب هادئاً في السهل بعد أن رأوه صاخباً في الوديان ووصلوا مصيف كيستا، بيوت صغيرة حقيرة أسطح المنازل مع مستوى الارض. لم يشاءوا التوقف كثيرا، وكان المنحدر شديداً إستغرق ساعة من الهبوط وغربت الشمس ومازال أمامهم ثلث الطريق المقصود، همّوا بالإنحراف الى چەلکێ على اليمين ولكنهم خافوا من ان تكون خالية من السكان، وساد الظلام والدواب تسير بهم وقد إستحثت خطواتها رطوبة الوادي. ولما شعَّت بعض الأضواء خلال الاشجار كانت الساعة تجاوزت التاسعة ليلاً وصلوا هروري وإستضافهم احمد عمر في علية مزدوجة بالزوار. قلما شعروا بالتعب مثل اليوم.

الأربعاء ٦ حزيران ١٩٦٢

بعد الفطور مباشرة خرجوا لنزهة، رائدهم احمد مضيفهم. القرية كبيرة تحيط بها البساتين من كلّ جانب وتطوقها الجبال الشاهقة من كل اطرافها فيشعر الإنسان بالإختناق... في أقصى بساتين القرية حيث النبع الغزير، قضوا هناك ساعات هنيئة ومكثوا حتى الظهر...

جاءهم زائر جديد هو الملا حسن مختار محلة حسينيك إحدى ضواحي زاخو، أُلقي القبض عليه وإتهُم بالخيانة والوشاية بالمناضلين الكُرد على حد زعمه بينما كان ذاهباً لكشف مشروع حازم بك الاروائي. والمشروع الإروائي هذا ترعة كبيرة عميقة شقها حازم بك بتمويل منه وكلفة باهضة يبدأ من جسر دلال وينتهي في اطراف چم مشكو بزاخو وكيستا وشكفت مارا ومهمديك وهي مسافة تزيد على خمسة كيلومترات، وقد درّ فوائد جمة على اهالي المنطقة، والمشروع بحاجة دائمة الى اعمال الصيانة والتنظيف يعمل فيه كثيرون من أمثال ملا حسن وقد لُقب حازم بك بسبب تشغيله لأعداد كبيرة من

فقراء المنطقة في حفر المشروع وصيانته «بابێ فەقیر وژاران= أي ابو الفقراء والمساكين».

عاد ملا حسن من حيث أتى في ساعة متأخرة من الليل دون أن يلقى جواباً شافياً لأسئلته حول وضع عائلته في زاخو من المطران والخوري، فهو يائس من وصول أخبارها منذ ان أُلقي القبض عليه قبل ثلاثة أسابيع.

بعد برهة من النوم قام الخوري ليكتب في دفتره:

«اصبح الانتظار لا يطاق ومصيرنا معلق بيد اسعد خۆشەڤي، وأسعد لا تنتهي إهتماماته الإدارية والعسكرية، فهل سيقدم إلينا أم يستدعينا لمواجهته؟».

الخميس ٧ حزيران ١٩٦٢

ليست هروري بالقرية الصحية، النوم ثقيل والذباب يهاجمهم طيلة النهار افواجاً واجواقاً.

شعر الخوري بالانقباض الشديد والتشاؤم الأسود جثم على صدره. خرجوا ليروحوا عن النفس قليلاً. زاروا المستوصف وأخذوا بعض حبات الكينين وإتجهوا شرقاً بمحاذاة جبل مەتينا، مەتينا الحافل بالذكريات العِذاب، نفس هذه السلسلة تمر من مسقط الرأس على بعد بضع ساعات، من وراء الجبل يمتد وادي صەپنا الخاوي الآن من أجمل قُراه والذي ينعق فيه البوم. جلسوا على مجرى ساقية وأكلوا التوت بشهية ونهم، وعادوا عند الظهر.

عند الرابعة إستودعهم الملا حسن وحرسه ليعود من حيث أتى وزعم انه سيعود الى شرانش للإقامة فيها. ولكن مَن يدري؟ فالقوم متحاملون عليه، ربما سيلقى حتفه في محل مجهول بعيداً عن عياله وذوية... آه، ما أبشع الحرب وما أقساها.

لمّا عادوا من النزهة المسائية في نحو السابعة، لقيهم كاكه احمد وكان راجعاً من المقر من عند أسعد، وإستفسروا منه عن الأحوال. قال إن أسعد سافر ليزور الجبهات ولن يعود إلاّ بعد اسبوع او أكثر، وحينئذ سيبادر الى

مواجهتهم.

لم ينسَ الخوري أن يكتب هذه الفقرة في دفتره:

«رباه! أسبوع آخر من الإنتظار الممل القتَّال! رحماك يارب، لقد عيل صبرنا! ألا يكفينا ما ذقناه الى الآن؟ وهل في اليد حيلة، اننا أسرى، نعم! وعلى الأسير ان يخنع ويخضع، وإن عربد وتمرد فلا يجني غير همٍّ على هم. إن لم يكن ما تريد فأرد ما يكون كما يُقال. طوال النهار تقريباً لم ينقطع دوي المدافع وزمجرة الطائرات القاصفة».

الجمعة ٨ حزيران ١٩٦٢

عقب الفطور القشف، جلسوا ليسطروا رسالة الى علي خليل وكيل أسعد خوّشەڤي، راجين منه السماح لهم بالتحول الى قرية چەلكىّ للنصارى. فلقد حُرموا كل هذه المدة من خدمة القداس، وملابسهم قذرة وأجسامهم تكدست عليها الأوساخ نصف بوصة. كما ورجوه الإسراع بإطلاق سراحهم ليلتحقوا بمركزهم في زاخو حيث العمل الكثير في إنتظارهم وحيث الأهل والأصدقاء اليائسون من نجاتهم، وارسلوا أخرى الى القس منصور كاهن بيّرسڤىّ.

تجولوا في البساتين سعياً وراء أثمار التوت. وتناولوا الغداء القشف لدى الحاج محمود ملا خالد، إنها بادرة لطيفة من شخص غريب لا تمتّهم به صلة سابقة.

ودُعوا للعشاء لدى إبن اخي الحاج محمود أي خالد واخيه ابراهيم، تسامروا الى ساعة متأخرة، سمعوا الأنباء... وعند عودتهم الى دار احمد شانه كانت في انتظارهم رسالة من علي خليل وكيل اسعد خوّشەڤي يسمح لهم بالتحول الى قرية چەلكىّ حسب مرامهم، وأما بإطلاق سراحهم، فالأمر مُناط بهم، عليهم هم ان يسرعوا في تلبية طلب عيسى سوار...

ذهب كلٌّ الى فراشه وأخذ الخوري يدون في دفتره ما يلي:

«إذن نحن رهائن لن نشاهد نور الحرية طالما لم نستجب لرغباتهم... بلغ التأثر من سيادته مبلغاً كبيراً، وأظنه أرق الليلة كلها».

8

الراحة في چەلكي

السبت ٩ حزيران ١٩٦٢

تأهبوا للرحيل وذهب الخوري الى المستوصف ليستعير بعض الكتب المكدسة هناك في المخزن والعائدة الى مدرسة هرور. إنتقى منها خير ما وجد، واغلبها تربوية.

عاد الخوري ليملي عليه سيادة المطران الرسالة التالية الى السيد علي خليل:

سيادة الأخ علي خليل المحترم

ببالغ الفرح والسرور تسلمت رسالتك الرقيقة التي يبدو منها أن الاخ اسعد خوّشەڤي يقوم بزيارة الجبهات لتفقدها، وكنت على أهبة الإستعداد للسفر الى مقره لمقابلته عندما أبلغني ملا حمدي انه سافر وليس بالإمكان مقابلته في الوقت الحاضر وربما سيغيب اسبوعاً او أسبوعين بهذه المهمة.

أخي الكريم: كما تعلم نحن في أسبوعنا الثالث هنا عندكم ورغم الكرم والحفاوة التي أحطتمونا بها منذ ان وطأت اقدامنا الأراضي المحررة إعتباراً من خيزاڤاك الى هرور ومروراً بگلي پس آغا وگلي كەشان، لكننا نشعر بالمسؤولية ويجب علينا العودة الى مركز الأبرشية في زاخو لأداء مهامنا الدينية لأن غيابنا عنه طال أمده فهناك أشغال وامور إدراية

بإنتظارنا في المطرانية.

كما لا يغيب عنك وكما شرحناه لأكثر من مسؤول في الحزب والپيشمەرگه أن الحكومة أرغمتنا على القيام بهذه الوفادة المضنية والخطيرة، واني لعلى ثقة من أنك تعرف موقفنا من سياسة الحكومة تجاه أبناء شعبنا سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين في مناطقكم وإن معظم رعاياي لديكم ويعيشون في منطقتكم.

أما بخصوص ما طلبتموه مني لقاء إطلاق سراحي فإني بصدد دراسة ذلك وحبذا لو إلتقيت الأخ أسعد لكي أشرح له ذلك بالتفصيل.

كما لا يسعني إلاّ أن أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن شكري وإمتناني لكم جميعاً للسماح لي وللخوري بالتنقل الى قرية چەلكێ للنصارى حيث سيتوفر لنا قدر من الراحة أكبر بين رعاياي وبإمكاننا أن نؤدي لأهالي هذه القرى بعض الواجبات الدينية التي حرموا منها ردحاً طويلا من الزمن.

كما إن القرية على مقربة من مقركم في حالة الإيعاز إلينا بالحضور.

بعد كتابة هذه الرسالة سنغادر انا والخوري الى چەلكێ حيث ننتظر منكم الجواب، ودمتم.

المخلص توما ريس مطران زاخو

شدوا الرحال، سيادته راكباً والخوري والشماس مشياً على الاقدام، إستخف الطرب بالخوري لمجرد تفكيره انهم سينزلون ضيوفاً على جماعة من رعاياه المسيحيين وسيسمعون لغتهم ويرتاحون الى عشرة قوم من رعاياهم وسيجدون لديهم عزاءً وسلواناً.

رحبت بهم بقية متبقية من أهل القرية، وأول بيت لقوه، قصر جميل نظيف، امام الدار صف من الاشجار المثمرة، فرشوا لهم تحت ظلالها الوارفة. كان أحد افراد الأسرة قد توفي قبل أسبوع، لازالت أرملته تصعِّد الزفرات

والحسرات. وهناك مريض طريح الفراش يعاني من الزُحار الشديد، ينتظر الموت. فلا طبيب في المنطقة ولا دواء.

بعد الظهر نزلوا ضيوفاً على الشماس خوشو، داره على الطراز القديم ولكنه شخص أصيل المحتد مرتب نظيف، وإعتقد الخوري انهم سيجدون لديه بعض الراحة.

أقاموا صلاة المساء بإحتفال، وغداً سيقيمون خدمة القداس للمرة الأولى بعد أسبوع.

تسامروا الى ساعة متأخرة، وشعروا بمشاركة وجدانية وفرحة حقيقية.

الأحد ١٠ حزيران ١٩٦٢

منذ الصباح الباكر والخوري منشغل بإعداد ما يلزم لإقامة القداس، وقد توفق في إيجاد غرفة مهجورة منزوية، وهناك نصب مائدة صغيرة وأعد فوقها الأواني المقدسة مع كأس وصبَّ فيه قليلاً من الخمر ووضع في الأواني شيئاً من الخبز إحياءً لمائدة العشاء الأخير الذي أقامه المسيح مع حواريه.

قدَّس عليها المطران اولاً ثم تبعه الخوري مباشرة ليقيم القداس الاحتفالي، بدأه بصوته الرنان «تشبوحتا لآلها بمرومي وعل ارعا شلاما وسورا طاوا لوني ناشا..» (المجد لله في العلى وعلى الارض السلام والرجاء الصالح لبني البشر..) ورغم ان كنيستهم المؤقتة لم تكتظ بالمؤمنين إلاّ أن الفرحة كانت طافحة جامحة على وجوه الحاضرين فقد حُرموا من خدمة القداس فترة طويلة.

تناولوا الفطور لدى ياقو المجاور لكنيستهم وتجمع الأهلون حول سيادته يستمعون برغبة وشوق الى أحاديثه. والبقية المتبقية من الأهلين في القرية كلهم عاطلون عن العمل في يوم الأحد والسرور بادٍ على محياهم.

قضوا نهاراً ممتعاً لم يشعروا فيه بوحشة الغربة، فكأنهم بين الاهل والاقارب. وكان الشماس توما يسَرّي عن الخوري بأحاديثه الشيقة. وجلسوا بعد العشاء يتجاذبون اطراف الحديث، وفجأة نبحت الكلاب، واذا بمسلحَين أُوفِدا من هرور بأمر من القيادة ليكونا لهم حارسين لايبارحانهم ليل نهار.

فإنقلب الفرح الى ترح وشعروا من جديد بذلّ الأسر وهوانه.

الإثنين ١١ حزيران ١٩٦٢

إنزوى الخوري ليطالع كتاب «نواعير الفرات» او بين العرب والكُرد للصحفي المتجول ماليبارد، وهو من الكتب التي إستعارها من مدرسة هرور، وكان قلقاً عصبي المزاج، وأتاه خوشو واسرّ في أذنه ان المريض وردا صومو قد عاجلته المنية، وعليهم ان يقوموا بالمراسيم الدينية.

قصد الخوري دار الفقيد برفقة المطران، وكان في إنتظارهم أحمد شانه، كان المتوفى مسناً قد انهكه داء الزحار، واخذت النسوة ينحن وينتحبن، بينهن ارملة صومو ابن أخ الفقيد والمتوفى هو الآخر منذ أسبوع فقط تفتت اقسى الأكباد برثائها وعويلها، ومنظر أطفالها الأيتام يستدرُّ الدمع، وأجهد الخوري نفسه في حبس أدمعه وعبثاً حاول، اذ وجدها تنهمر كسيل دفّاق.

ذهب الخوري ليشيع جثمان الفقيد الى مثواه الأخير، وقد وجد المقبرة بعيدة عن داره بعداً خيالياً، فهي في ساحة كنيسة مار موشي والمعبر مشيد على الخابور في محل ناء من القرى المجاورة، والطريق التي تؤدي اليها وعرة شاقة، تمر بين الأحراش والادغال تقطعها السواقي والمجاري والجسور الخشبية الصغيرة. وبلغوها عند الظهر حاملين جنازة الفقيد وتأخروا ريثما يتم حفر الجُدث، وكاد الخوري يسقط من شدة الجوع والإعياء ولم يتناول الغداء إلاّ في نحو الثالثة تقريباً بعد ان عادوا منهكين. ومضى المطران في عظة التأبين البسيطة الجذابة بينما الاهلون يستمعون بلذة الى احاديثه الشيقة عن أمريكا.

في السادسة مساء اقبل احمد شانه لزيارة المطران، فإختلى به سيادته ثم انضم اليهما الخوري بعد فترة وجيزة من النقاش الهادئ، ويبدو من وتيرة الحوار ونبرته ان المطران قد اجتاز مرحلة الرفض والنفي واخذ يستأنس مجالستهم ونقاشهم بقدر أكبر من المرونة والسلاسة، كما أن مفاوضيه ايضاً باتوا يفهمون الوضع المزري الذي يعيشه والخوري المرافق له.

– كاك احمد، هل من جديد في مسالة فك أسرنا واطلاق سراحنا؟

– كەسێمن، ثق اني احاول بكل ما أوتيت من حجج لشرح وجهة نظرك لأسعد وقد افهمته ان الوضع الذي انتما فيه غير ملائم ويجب ايجاد حل سريع له. واكد لي: انه يبحث في الوضع مع مستشاريه، وسيوليه الإهتمام اللازم حال عودته من الجبهة بفترة زمنية قصيرة.

– هل لك ان تطلعني الى أية جبهة سافر؟ ولماذا سيتعطل فيها أسبوعاً أو اسبوعين على ما بلغني؟

– كەسێمن، لضرورات امنية ليس بمقدوري الإفصاح عن هذه الامور بصراحة تامة. فهو لو ذهب الى زاخو اعلمنا مقره انه غادر الى شيخان، واذا كان في آكري اعلمونا انه متواجد في دهوك! كل هذا لتمويه الأمور على مخابرات العدو واشغالهم للتستر على المكان الذي يقصده. أحياناً أخرى يكون متواجداً في مقره وتسمع الاشاعات انه غادر قبل ثلاثة ايام الى دهوك.

دخل عليهما الخوري وقد اخذ قسطا وافراً من الراحة بعد الاعياء الذي اصابه جراء تشييع المتوفى وحالة الإسهال التي اصابته، صافح احمد شانه وجلس قبالته بجانب المطران.

استرسل احمد شانه في حديثه وانقلب من الجد الى سؤال ليس هزلياً بقدر ما هو نظري ممكن التطبيق، طرحه على المطران دون ان يتوقعه وبشكل فجائي:

– كەسێمن، نحن بحاجة اليك! نحن بحاجة الى مطران في كُردستان! لماذا لاتبقى عندنا، وتصبح مطراناً لدينا وسنوفر كلما تحتاجه من خدمة وكتب ومحل إقامة؟ ولنا في كُردستان من الإخوة المسيحيين ما يكفي ويزيد، وهم بحاجة الى من يرعى شؤونهم، علمت انك قلت لعيسى سوار اثناء الإستجواب إن لك خمساً وثلاثين قرية في أبرشيتك، نحن على إستعداد لنجعلها خمسين قرية. فما هو رأيك؟

– كاكه احمد، اذا إستقرت الأوضاع، وبإذن الله ستجري الامور كما تشتهون، عندئذ لايكون لكم مطران واحد في كُردستان بل ثلاثة او أربعة يرتبطون بمقر البطريركية بشكل رسمي وبتأييد الڤاتيكان، إن انتخاب

المطران لأبرشية ما مسألة عويصة ومعقدة وتمر بمراحل وموافقات عديدة تصل حد مصادقة الپاپا نفسه، فكيف تريدني تخطي هذه المراحل والمراجع؟

– انا لم اقصد ان تتعين لدينا بشكل غير شرعي، ان ما أقصده هو ان تقيم بيننا، فالثورة بحاجة الى رجال دين مثقفين من أمثالك الذين جالوا الدنيا وعاشوا في امريكا لسنوات يبرزون وجه الثورة الناصع ويبرهنون على ديمقراطيتها وعلى حرية الأديان والمعتقدات فيها، نحن نود ان يقابلكم ضيوف الثورة من صحفيين أجانب ويأخذوا منكم التصريحات الصادقة عن وضع رعاياكم وعن حسن معاملتنا لهم كما ترون بأعينكم.

– في الوقت الحاضر، لا اتصور هذا ممكناً، ولكن كل شيء جائز، فالثورة لايُعلم اتجاهها، بعضهم يقول انها يسارية مرتبطة بالروس، وبعضم يقول انها مرتبطة بالاستعمار البريطاني والامريكي، فلا احد يعلم ما يجري.

– كەسێمن، هل وجدت شيئاً من هذا القبيل؟ نحن لا ننتمي الى اليسار ولا الى اليمين، وانما نحن ثورة على الفساد والظلم الذي لحق بنا، وننشد حقوقنا القومية ومساواتنا بالعرب. نحن نطالب بحقوق إدارية وثقافية وإثبات هويتنا القومية على أرض اجدادنا وبموجب واقعنا، وهذه، على ما أعتقد حقوق بسيطة حصلت عليها أمم عديدة بدون اراقة قطرة دم واحدة.

واطالوا الجلوس وتطرق سيادة المطران ثانية الى موضوع فك اسرهم واطلاق سراحهم ليقنع بدوره اسعد خۆشەڤي، فوعدهم بأحلى الكلام وأطيب الوعود.

بعد العشاء جلسوا في سهرة عائلية يتبادلون النكات والقصص! وسرى عنهم مضيفهم ببعض الكحول لعلهم يتغلبون على الحزن الجاثم على صدورهم فيعينهم على الرقاد، ويخدر اعصابهم فلا يشعرون بلدغات البرغوث، قاتله الله.

الثلاثاء ١٢ حزيران ١٩٦٢

زار المطران يرافقه الخوري ارملة صومو، وتجمعت حولهم حلقة من الشيب، واطالوا المكوث، فالفئ وارف والنسيم منعش وخطر لهم ان يتزودوا ببعض البضاعة من دكان الفقيد الذي تديره ارملته، وكان شبه فارغ ولقوا فيه بعض الحاجات كالاغلفة ومعجون الأسنان وادوات الحلاقة وغيرها. ونقدوا سعرها كاملاً وافراً. ودعاهم الشماس توما الى الغداء. القصر فخم منسق على طراز لطيف جميل. ويبدو مضيفهم نابهاً قد تعلم الكثير من تجوله. وتناولوا الغداء بشهية وبعد الغداء مباشرة اقبل السيد عبداللطيف من لدن علي خليل وألقى على المائدة ست علب سكاير من نوع «غازي». ففغروا افواههم مندهشين لغرابة المفاجأة، وطال جلوسهم الى بعد الرابعة والنصف.

بعد مغادرة عبداللطيف دخل المطران والخوري في نقاش طويل حول تحسن اوضاعهم لاسيما بعد السماح لهم بالتحول الى چەلکێ. بادر الخوري المطران متسائلاً:

– سيدنا، اني ارى ان انعطافا قد طرأ على موقف القيادة في المقر تجاهنا، ألا تشعر به؟

– ماذا تعني، أبونا، أهو في صالحنا؟

– ألا ترى أن ملا حمدي يأتينا بين يوم وآخر وكذلك احمد شانه، واليوم كاك عبداللطيف يأتينا بالسكائر! هذه الزيارات وهذا الإهتمام ليس إعتباطا!

– من تراه يقف وراءه؟

– ارى إن ملا حمدي، لإعتبارات دينية يفهمها، يدافع عنا وقد إلتحم معه أحمد شانه وحنا طلو وغيرهم.

– أبونا، الاجواء هنا اكثر إنفتاحا من زاخو التي تعيش حالة حرب دائمة، وأوضاعاً إستثنائية خارقة، كما ارى ان المسؤولين هنا اكثر لطفاً ودماثة وثقافة وتعاملهم اجمل معنا ومع غيرنا بعكس زاخو التي ارى فيها المعاملة العسكرية الخشنة.

– سيدنا، لاتنس ان منطقة آميدي لم تكن مسرحاً للأحداث منذ اشهر

عندما طُردت الحكومة منها، فناحية بەرواري بالا كلها محررة وجبل متينا كله بيد الپيشمەرگه وكذلك الى گارا، كل ما تسيطر عليه الحكومة هو الطريق العام المؤدي الى العمادية لا غير ثم إن المقر هنا مقر عام. أتعلم ان اسعد خۆشەڤي هو ظل البارزاني في منطقة باديان ومعتمده الاساسي في الثورة؟ اما منطقة زاخو ففيها تواجد حكومي وعسكري أكبر، ولهذا تراها دائماً في حالة غليان شعبي، ويجب ألاّ تنسى انها منطقة حساسة فهي نقطة إلتقاء ثلاث دول لذا توليها الحكومة كل هذا الاهتمام.

– ألأسعد مثل هذه القابليات الإدراية والعسكرية، فهذه المنطقة تشكل النصف الأهم من لواء الموصل. كيف يمكنه إدارتها؟ أراه قد جمع مؤهلات المتصرف والآمر العسكري في شخصه!

– لأسعد صلاحيات واسعة، وهو مخوّل من البارزاني بحل أية قضية أو ربطها. يرتبط به من الناحية العسكرية أربعة هيزات سلمها ملا مصطفى لأربعة بارزانيين من الذين صحبوه الى الإتحاد السوڤييتي ومكثوا فيه اثنتي عشرة سنة منذ سقوط جمهورية مهاباد الكُردية في ايران، وهؤلاء ليسوا بطارئين جدد على الميدان العسكري، إنهم بالاضافة الى ممارسة العمل العسكري وحرب الأنصار ضد قوات الشاه، درسوا في روسيا فنون القتال، ومراسلاتهم فيما بينهم كلها بالروسية، وتحت إمرتهم قادة أُختيروا من خير ما هو موجود بين الكُرد.

– أهو كبير بالعمر؟

– على ما أسمع إنه لا يتعدى الخامسة والأربعين من العمر وأصغر قادته سناً هو عيسى سوار، وقد أحاطوا انفسم بجمهرة من الناس المخلصين والكفوئين لإدارة المنطقة.

– تكلمت عن إنعطاف في موقفهم تجاهنا، كيف تفسره؟

أتراه لأننا قمنا بعمل إيجابي دفعهم الى تغيير موقفهم الحازم الجازم تجاهنا؟

– هناك أمر واحد، وإني متوجس أنه دفع الامور بهذا الإتجاه فأحدث

الإنعطاف.

– إني اشعر أن القضية، أي قضيتنا، قد بلغت مسامع البارزاني نفسه! ولا أرى كيف ان البارزاني يشغل فكره بقضية ثانوية صغيرة كقضيتنا وإلا ما إستطاع ادارة امور هذه الثورة من زاخو الى خانقين. ثم ان علاقات طيبة تربطه مع صادقي برو وهو يعلم ان صادقي برو لا يخونه حتى لو زرناه وعرضنا عليه مسألة الوساطة حسب رغبة الحكومة. فقد كان البارزاني هنا حتى قبل أسبوعين أو ثلاثة، وهو الآن على ما أسمع، يزمع قريباً على المغادرة الى منطقة عقرة وشيخان ليشرف بنفسه على عمليات عسكرية في گلي زنطه ومنطقة دينارته والظاهر ان اسعد سيرافقه اليها لتأسيس هيز عقرة وشيخان، بعد ان اطمأن انه سلم منطقة زاخو لقائد ذي قابليات متميزة، أعني به عيسى سوار.

– هل تعتقد ان البارزاني أمر بمعاملتنا بالحسنى أو على الأقل عدم التشدد معنا؟

– هذا شعوري، سيدنا، فهو يعير الإهتمام الكبير للمفاوضات مع الزعيم لأنها عقدة كل المشاكل، فإذا نجح في مسعاه وتوصل الى اتفاق معه إنحلت المسائل العالقة الأخرى واحدة تلو الأخرى.

– لا تنس اننا كنا قاب قوسين او ادنى من تهمة الخيانة وأنا اتصور ان التأويل الذي خرج به عيسى سوار من اننا مُغرر بهم انما كان من صياغة ملا حمدي وصنعه ومن بنات افكاره.

– قد يكون لمعرفتي الشخصية به علاقة بالموضوع، وقد يكون لما رفعته اللجنة المحلية للپارتي في زاخو من تقارير سرية بخصوص المطرانية وموقفها علاقة بالمسألة، ولكني ارى اصبع البارزاني في القضية، انه رجل عادل ويفهم موضوع الاقليات العرقية والدينية في كُردستان، انه يعرف أن إعتقال مطران في هذه الظروف الشاذة قد يكون له صدى سلبي على علاقاته مع الاقليات ثم يعرف ان الامر سيصل الى السفارة الپاپوية في بغداد ومَن يعلم فقد يصل الى الڤاتيكان، ولعل الڤاتيكان نفسها إتصلت به عن طريق وسطائها الدبلوماسيين. فهذه امور تجري

في الخفاء بعيداً عن الانظار والاضواء.

– الحقيقة يجب ان تُقال، لقد كنا موضع تقدير وإحترام، وعوملنا معاملة أقدر ان أسميها حسنة حتى الآن باستثناء حالة واحدة هي عندما سدد علي هالو بندقيته في صدري وهمَّ بقتلي، ولو لا تدخل سليمان حاجي بدري لقتلني لسبب رفضي إلحاحه على تلبية مطاليبه الثقيلة في الحال!

– سيدنا، قتل مطران ليس هيناً، فالمطران بمثابة رئيس ملّي في منطقته، أتعلم متى قتل آخر مطران في كُردستان؟ انه كان المطران أدي شير الشقلاوي الأصل، قتل في مدينة سيرت سنة ١٩١٥ على يد مرتزقة الدولة العثمانية؟

– نعم، كيف لا أتذكره من كتاباته، فقد كان عالماً نحريراً ألّف كتاب «كلدو وآشور» الشهير وغيره من الكتب.

الاربعاء ١٣ حزيران ١٩٦٢

نهضوا باكراً وسبق الخوري المطران ليقيم خدمة القداس وبدأ الاهلون يتقاطرون على كنيستهم المرتجلة ويحتشدون فيها ليقيموا صلاة الثالث عن راحة نفس المرحوم وردا. اقام المطران القداس على نيته ووعظهم بإرشاد قصير حثّهم فيه على التوبة والصبر، وبعد القداس اقاموا صلاة الجناز ثم توجهوا الى دار الفقيد حيث كانت ارملته شوني وحيث تناولوا الفطور وتسكعوا ساعات طوال، والزوار يتقاطرون والمطران يهم ان يقتل الوقت بحديث بلغة كُردية ضعيفة. والعجيب الغريب ان القوم ينصتون اليه بغير شماتة، بينما تتكهرب أعصاب الخوري والشماس.

تناولوا الفطور لدى شليمون أحد اهالي القرية.

إشتد الحرّ وتكاثر الذباب لدرجة فظيعة، الذباب نهاراً والبق والبرغوث ليلاً وحدِّث عن القلق النفسي ولا حرج.

يلتهم الخوري الكتب بنهم، كلما يقع تحت يده، باشر اليوم بقراءة «أسس الصحة النفسية»، إنه كتاب علمي ممتع وإن كان عسير الهضم قليلاً. أخذ الخوري يشعر بالإنزعاج السريع وتوتر الأعصاب وإسهال شديد مضني.

عند الظهر، فاجأهم الدكتور موشي بزيارة سُرّوا بها كثيراً.

وموشي هذا مضمد إمتهن التطبيب في الجيش البريطاني وشركة النفط، ولإحتياج الپارتيين الملحّ الى شخص يقوم بتضميد جرحاهم وتطبيبهم لم يروا خيراً منه، لذا فهو قرب المقر وله نفوذ لا بأس به، مسموع الكلمة محبوب. جلب لهم بعض علب السكاير.

جلس الثلاثة على مائدة الغداء، الدكتور موشي يقابله المطران والخوري، وأخذ المطران يسأله عن اوضاعهم:

– إبني موشي، هل لك ان تعطيني تقييمك لما يدور على الساحة؟ هل إن ما يجري هو ثورة حقيقية أم حركة عصيان وتمرد أم حركة قومية أو يسارية تدعمها جهات خارجية؟

– سيدنا، انها ليست ثورة بالمعنى الإجتماعي والإقتصادي الذي تسمع اليه. انا أراها حركة قومية ووطنية عادلة لا تدين باليسار واليمين، إنها حركة تحرر قومية على الطريقة الكُردية وحتى هذا اليوم لم اقع على شيء او أسمع ان جهات أجنبية تساعدنا او تعدنا بشيء، قد تأتي هذه الامور فيما بعد، ففي الوقت الراهن نعتمد في كل شيء على امكانات الشعب الكُردي، ويجب اثبات وجودنا أولا لكي يأتي الينا الآخرون!

– الحصار والحرق والتدمير سوف يقضي على هذه الإمكانات فما عسى ان يفعله الشعب الكُردي بعد ذلك سوى رفع العلم الابيض أمام الحكومة!

– من الصعب بمكان إستشفاف المستقبل، ولكن لا أحد يعلم ما ستحمله الايام القادمة، قد نستيقظ غداً على راديو بغداد معلناً البيان الاول لإنقلاب جديد يكون القائمون به من الحكمة والانسانية بحيث يفون بالوعود التي يقطعونها للشعب الكُردي، ولا يستغلون الفرصة لتعزيز مواقعهم للإجهاز على كُردستان مرة أخرى.

– يبدو لي ان الجيش لا يستطيع القضاء الكلّي عليكم كما انكم ليس بمقدوركم الإجهاز عليه بمحدودية السلاح الذي لديكم والسيطرة على المدن الكبيرة مثل الموصل واربيل وكركوك، وهذا معناه ان الجانبين

سيراوحان كل في مكانه، وقد يدوم هذا لأمد بعيد، أترى أية صحة في تفسيري؟

– تفسيرك منطقي وصحيح، وسنبقى نمارس الضغط على الجيش لإضعافه فقد يجهز هو على الحكومة فيسقطها، دون ان نعلم، فبينما كل هذا يجري مجراه، قد تمتد الينا يد المساعدة من دولة عربية او اجنبية، لكن الاشهر التسعة الماضية من عمر الثورة اثبتت لنا ان كل شيء يعتمد على القدرات الذاتية المالية والعسكرية لشعبنا.

– هل لك ان توضح لي موقف المسيحيين ومستقبلهم السياسي والأمني من هذه الحركة وموقف الحركة منهم؟

– المسيحيون بكل طوائفهم الدينية واطيافهم السياسية يتعاطفون مع الثورة، ان لم يكن علنا فسراً، لأنهم يعتبرونها المنفذ الوحيد للخروج من وضع الفساد السائد في العراق، الفساد الاداري والتفرقة العنصرية والدينية. تذكر سيدنا، كيف تعاطفوا مع عبدالكريم قاسم في البداية لأنه كان املهم الوحيد فإنخرطوا في سلك المقاومة الشعبية، أما الآن فهم يرون في الثورة الكُردية خلاصهم.

– طرق سمعي ان هناك فتيات مسيحيات بين المقاتلين في صفوفكم، ألهذه الشائعة نصيب من الصحة؟

– هناك فتاة واحدة فقط اسمها مارگريت، وتُكنى مرگو من قرية دورێ، وقد اثار إنضامها الى الفصائل المقاتلة هرجاً ومرجاً في تلك الأوساط، فهي متهورة في سوح المعارك، تتقدم الپيشمەرگه، فيتصاعد الحماس لدى الرجال ويحاولون منافستها، مما يسبب لنا الضحايا الكثيرة. واني ارى أن القيادة العسكرية ستلجمها وتقيد حركاتها عاجلاً ام آجلاً.

– إبني موشي، متى التحقت بالپارتيين، هلا تحكي لنا قصتك؟

– سيدنا، كنت موظفاً صحياً في ريف المنطقة، وكانت ميولي پارتية منذ البدء، ولكن لدى قدوم البارزاني الينا لتأسيس لەشكرى يەک (الجيش الأول) أُسرنا بسحره، فإنخرطتُ في سلك الپيشمەرگه بصفة مضمد ولكنهم اخذوا يدعونني دكتور كما ترى، فرافقت الحملات العسكرية الى

الجبهات لمعالجة الإصابات التي كانت تقع في صفوفنا، أحياناً أخرى كان يتحتم عليَّ ان اسافر على ظهور البغال للوصول الى الجرحى المدنيين والمرضى في القرى النائية، أحاول قدر إمكاناتي المتواضعة.

– ولكن ماذا عن الدواء واجهزة التضميد والمستلزمات الطبية الاخرى التي تحتاجها؟

– نحاول تدبيرها من دهوك او الموصل او زاخو عن طريق التهريب. يجب ألاّ يغيب عن بالك سيدنا، ما زال هناك شيء إسمه الربح فسيحاول احدهم توفير ما نحتاج. ان الطرق ليست مقطوعة كلياً فهناك رواح ومجيء بين مناطقنا المحررة وتلك التي بيد الحكومة رغم الحصار الاقتصادي المفروض علينا. اني ازود المهربين بقائمة احتياجاتي الطبية واسلمها لهم وهم يوفرونها لنا بأسعار خيالية طبعاً.

– من يشرف على شراء هذه الادوية والاجهزة؟

– الثورة! كل الادوية والعلاجات عندنا مجانية توفرها الثورة لابناء المنطقة.

– ماذا عن المستشفيات والمستوصفات؟ هل لكم منها ما سلم من القصف الجوي والمدفعي؟

– المستشفيات لم يبق منها، كلها رحلت، لدينا بعض المستوصفات الريفية التي سلمت من القصف وقد إتخذنا بعض الكهوف الجبلية مستشفيات بدائية بعد توسيعها وتنظيفها.

– كيف وضعك هنا؟ هل انت موضع إحترام وتقدير؟ أسمع أن القيادة تحيطك بالكثير منه!

– سيدنا، ألا تسمعهم يدعوني دكتور وانا لست سوى مضمد بسيط تعلمت المهنة في الليڤي، ولكن الحالات الطارئة جعلتني أتعلم الكثير، ولي دكتور صديق في دهوك استشيره كثيراً، ابعث اليه بأسئلتي كتابة حول بعض الحالات وهو يرسل اليّ الجواب بعد أيام.

– إبني موشي، انت تعرف وضعنا هنا، فأنا والخوري رهن الاقامة الاجبارية، وها نحن على هذه الحال منذ ثلاثة اسابيع، ارجوك ان تبذل ما بوسعك لدى القيادة وخاصة لدى اسعد لتأمين فك اسرنا والعودة الى

زاخو، فنحن لا يمكننا ان نبقى هنا الى ما لا نهاية له.

– سيدنا، لقد قمت بواجبي، وبأذنه تعالى، سأرى اسعد مرة اخرى حال عودتة بشأنكما. لا تخش فالكل يعرف بوضعكما وقد علمت ان المسألة سترفع الى البارزاني نفسه!

– بارك الله فيك، يا إبني! ما هذه السكائر؟

– اعطانيها ملا حمدي قائلاً لعل سكائر سيدنا نفدت!

– انقل له شُكري وقل له اني لن انسى إحسانه وما أبداه من لطف!

بعد الغداء غادر موشي، واخذ المطران يفكر واطرق برهة ثم توجه الى الخوري قائلاً:

– يبدو ان حدسك صائب، فالمقر يولينا اهتمامه هذه الايام منذ ان وصلنا الى چەلكێ!

– لا تجهد نفسك في تأويل هذه الامور فقد تكون كالعلف الذي تسمن به الاغنام قبل ذبحها!

الجمعة ١٥ حزيران ١٩٦٢

تتوارد الأخبار تترى وكلها تشيد ببطولة المحاربين الكُرد ومآثرهم ومكاسبهم.. ها هنا قتلنا وها هنا غنمنا وفي موضع آخر حزنا على السلاح والعتاد.

كان النهار جميلاً معتدلاً، ذهبوا فيه لزيارة الأرملة شوني وعلى حين غرة جيء بأوان تطفح بالرز الذي تكلله قطع اللحم المقلي واخرى بمرق الباميا مع صحون اللبن والطماطة والخيار، وبعد دعاء قصير وصلاة شكر باشروا بنهم واطالوا المكوث ساعة بعد الغداء.

كان قد اصاب الخوري اسهال شديد خفَّت حدته عند الظهر بعد ان احتسى بعض اللبن، وتمكن ان يستلقي وينام القيلولة ومضوا في المطالعة ساعات طويلة يلتهم الخوري الصفحات، لاينقصهم سوى الوقوف على ما يجري في العالم الخارجي، فهم متعطشون الى الأنباء.

9

هل من نهاية يارب؟

السبت ١٦ حزيران ١٩٦٢

ساعات قاتمة مملة تنسلخ بطيئة متثاقلة كأني بالزمن يقف عن الحركة، وتحوم الافكار السود كغربان البين لتحط على رؤوسهم، ويظهر ان اسيادهم يريدون لهم الاقامة طويلاً بين ظهرانيهم، واسعد خۆشەقي المسؤول عن المنطقة كلها، يأبى الاجتماع مع المطران وقد تنصل من الإلتقاء معه بالتغيب والمماطلة والتسويف، ولكن الحقيقة هي أنه لا يريد ان يطلق سراحهم ما لم يكملوا الشروط التي فرضها عليهم عيسى سوار. فحجة الأقوى هي الفضلى والأحق في كل الادوار والأزمنة. كفاهم سلوانا وعزاء ان في السماء مولى يدين بالحق والعدل.

عند المساء انقشعت غيمة النكد والنحس اذ زارهم المختار هرمز في طريقه الى اسعد، فسأله المطران:

– إبني هرمز، علمت انك ذاهب عند أسعد، هل هناك حاجة لأوصيك بفتح موضوعنا معه؟

– لا حاجة، سيدنا، فانا انما ذاهب لهذا الغرض بالذات.

– اذا تسنى لك، جس عني نبضه واستعلم منه ما يدور في فكره، كن حذراً في اسئلتك!.

– سيدنا، ان سبب ذهابي هو لاني لم أعد اثق بهذا وذاك وما يقولونه، اني سأستقي المعلومات من مصدرها الاصلي، فقد تعبت من تأويلات

بعضهم من ان اسعد لايريد فك أسركما، فانا اعرفه رجلاً مستقيماً يحكم بالعدل والقسطاس وانا اعرف انه منشغل بالجبهات لذلك لم يكن له متسع من الوقت للبت في موضوعكما.

بعد الظهر، ساعد الإستحمام في الهواء الطلق على رفع معنوياتهم، لشعورهم بشئ من النظافة والتخلص من العرق والروائح والاوساخ المتراكمة منذ أسبوع.

الأحد ١٧ حزيران ١٩٦٢

أقاموا صلاة السابع عن روح المروحوم وردا بدأها المطران بقراءة لمزمور داؤد النبي «محي ميثي شوحا لشماخ» (سبحانك، يا باعث الأموات). بعد القداس، قصدوا دار الفقيد حيث اقاموا الصلاة، وتحدثوا طويلاً، وكان في المجمع قوم من الجيران المسلمين جاءوا الى التعزية ومن بينهم السيد عبداللطيف أحد المتنفذين في مقر أسعد.

مرت مدة طويلة حُرموا من الأنباء العالمية، وصلتهم مقطوعة بالخارج والداخل. سعى الخوري مع الشماس خوشو مضيفهم ليعثر على مذياع وبطارية، ولم يهمه الحر وقطع مسافة لابأس بها للحصول عليه.

لا زال طيف حلم مزعج يراود ذاكرة الخوري طيلة هذا النهار، فلقد عانى الليلة الماضية الأمرّين من البرغوث الذي ظل يهاجمه وهو يطارده ويتحين له الفرص لإصطياده عبثا. وعند الفجر غفا واذا به يشاهد في المنام قصفاً جوياً عنيفاً، وهو على مشهد من ذلك المنظر المؤلم، يرى طائرة تهبط بسرعة البرق وتهوي على الدور والعيال نافثة الدمار والموت.

في الخامسة والنصف تحقق حلمه اذ فاجأتهم طائرتان نفاثتان ملأتا الجو بزمجرة هديرهما، وما أن إستدارتا حتى هرع الكل لائذين بالفرار مبتعدين عن المساكن، وسمعوا على مسافة غير شاسعة دوي انفجار اعقبته صليات من المدافع الرشاشة. ولم يعلموا اذا ما وقعت ضحايا ام لا. ولم يتمكنوا من معرفة موضع القصف بالضبط. إن المرء لا يعي مقدار الرعب الذي يستحوذ على سكان القرى المعرضة للقصف ما لم يختبر ذلك ويتلمسه عن كثب، وإن

لم تقع ضحايا لكن الأثر النفسي الذي تخلفه الغارات الجوية لا يمحوه الزمن بيسر وسهولة، والجيل الصاعد سيعاني الكثير من هذا الاثر السيئ، وسينشأ جيل ضعيف الأعصاب قليل الإتزان.

في القرية التي يقطنون الآن لم تقع اية اصابات او ضحايا من غارة هذا اليوم ولكن يبدو هذا الاثر النفسي ظاهراً، فهناك بجوارهم وقعت ضحية، أحد الشباب أُصيب بشظية أودت بحياته. أما في قرية هرور فوقعت عدة ضحايا وعدد من المنازل تهدم. وكنت ترى الأهلين يلجاؤون الى مخابئهم في الكهوف والشقوق وتحت الصخور أو الأوجار التي حفروها تحت ظلال الاشجار. ولا يتمكن الانسان من اخفاء اعجابه ببسالة القوم ومن تقدير وطنيتهم وتضحيتهم في سبيل تحقيق اهدافهم التي تكلفهم غالياً.

في المساء تجمعوا بخشوع حول المذياع الضعيف المتضعضع لسماع الأنباء. الانباء كلها عن الثورة الجزائرية وعن الكونغو برازاڤيل. فاذاعة بغداد لا تغطي سوى اخبار الزعيم القائم والقاعد، وبرقيات الولاء المفبركة التي تطيّرها له المنظمات الجماهيرية والشعبية والجمعيات الفلاحية وبعض الموالين الوهميين.

اغلق زيا المذياع إقتصاداً في البطاريات حال إنتهاء الانباء، واخذ يطلق تعليقاته حول ما تذيعه هذه الإذاعات:

– أبونا، لماذا لا تكف هذه الإذاعات من تسميتنا بالمتمردين ويسمون كل من هبَّ ودبّ بالثوار؟

– لست ادري السبب، ولكني اظن ان لهذه التسمية علاقة بالعراق الذي يمارس ضغطاً استثنائياً على تلك الاذاعات، كما له علاقة بدول الجوار مثل تركيا وايران وسوريا.

– الأنباء كلها حول مناطق لا تأثير لها على العالم، فما هي اهمية كونغو برازاڤيل على مجريات الأمور في العالم؟

– زيا، العالم مقسم الى مناطق نفوذ، وكلٌّ يتكلم عن مناطقه، ومنذ ان خرج العراق من تحت سيطرة الإنكليز لا أحد يهتم به، ما زال نفطه جارياً في الأنابيب الى الموانئ العالمية. ان عملية واحدة يقوم بها الكُرد

ضد انابيب النفط، من شأنها ان تحرك مؤشرات السياسة العراقية وتنقل القضية الكُردية الى مستهل النشرات الاخبارية.

الاثنين ١٨ حزيران ١٩٦٢

بعد القداس مباشرة جلس المطران مع الخوري وإلتأم حولهما مجلس ضم كلاً من موشي والمختار هرمز الذي عاد لتوه من لدن أسعد مغموماً، فإستهل المطران الحديث بالسؤال:

– كيف كان اجتماعك مع أسعد يا هرمز؟

– سيدنا، ليتني لم اذهب!

– لماذا، ما الذي جرى؟

– حاولت بشتى الطرق التفاهم معه دون جدوى، فلقد كان مصراً على ابقائكم هنا حتى استيفاء شروطه، مهما كلف الامر وشروطه تعجيزية، كما تعلم!

– ما العمل إذن.

– لا حول لنا، لا نعرف كيف التفاهم معه وإرضاؤه، الحل الوحيد الذي أراه ممكناً هو ايصال صوتنا الى ملا مصطفى قائد الثورة! فهو الوحيد الذي يمكنه ان يطلق سراحكما بكلمة واحدة دون العودة الى اسعد او غيره. واني لواثق لو علم ملا مصطفى بالامر لأصدر الأمر باطلاق سراحكما فوراً.

– لنفكر بالامر ونحاول بطريقة او اخرى الوصول اليه.

– لن نألو جهداً، سيدنا.

لقد جيء لهم بكارتون سكاير من هرور نقد عنه سيادته ثمناً مغرياً: ديناراً ونصف دينار عن السكاير ونصفاً آخر لحامله وهذه ايضاً بعض التضحيات من اجل الثورة. الغلاء الفاحش. السكر والملح والملابس وغيرها من السلع تباع بأسعار خيالية، وغالب الاحيان بأي ثمن لإنقطاع طرق المواصلات ولمحاولة ضرب حصار على المنطقة الثائرة.

الثلاثاء ١٩ حزيران ١٩٦٢

يوم عادي لم يخرج فية شيء عن المألوف. راقت لهم الجلسة وطعام الفطور على الثيل لدى اخت الشماس شليمون، وهي عجوز وحيدة في دار جديدة واسعة مبنية بإتقان.

امضى الخوري صبيحة هذا اليوم بصنع خبز التقدمة للقداس، واستانس الى صحبة العجائز المسنات وافسح لهن المجال بالتحدث والتعبير عن مختلجات نفوسهن، وقد وجد ان معتقداتهن عن المسيحية خليط من نسج الخيال والأساطير والخرافات.

إنزوى سيادته ليرتاح قليلاً، تناولوا الغداء وذهب الخوري للقيلولة، عند المساء وجه المطران رسالة مطولة الى اسعد خوّشەفي يطلب فيها مواجهته للتفاهم.

إن خيال الملا حسن مختار حسينيك المتهم بالتجسس للحكومة الذي لقياه في الكپرات قبل أيام لا يزال يراود الخوري، لقد علم ان المسكين قد ثبتت عليه التهمة واعترف بجريمته ولقي حتفه وهو في طريق عودته، ويقال ان جثته بقيت في العراء وحُرمت الدفن.. يا للمصير المؤسف!

بعد تدوين الرسالة وإستنساخها بخط الخوري الأنيق، جلس الاثنان لشرب قدح من الشاي، بدأ الخوري بالحديث مع المطران وهو يصدر الآهات والزفرات:

– هل تتذكر ملا حسن الذي لقيناه في مصيف گەرين قبل اسابيع؟

– نعم كيف لا أتذكره؟ ما الذي دهاه؟

– تتذكر انه كان يقول لك انه سيعود الى شرانش لمعاودة حياة طبيعية مع عياله، لقد ثبتت عليه التهمة كما سمعت وانه اعطي «العشاء الأخير» حسب تعبيرهم الذي يعني انهم نفذوا فيه حكم الإعدام رمياً في طريقه الى زاخو، والانكي ان المسكين قد لا يحظى بالدفن وقد تنهش الكواسر جثته!

– هلاّ علمت كيف اثبتوا عليه التهمة!

– جابهوه بالنسخة الاصلية للتقرير الأمني السري الذي خطه بيده للسلطة

بعد ان إستلته مخابراتهم من أضابير الأمن في الموصل، فلم يكن له ما يدافع به عن نفسه وإعترف بجرمه.

– إذا كان هذا حال ملا حسن المسكين، فما عسى ان يكون حالنا؟ ألا تراه اسوأ!

– حالنا ليس كحال الملا، فقد كان متهماً بالتجسس لحساب الچتا والحكومة. ونحن والحمد لله لم نعمل لحساب احد.

– أبونا، في هذه الاوضاع الاستثنائية بإمكانهم إلصاق أية تهمة يرونها مناسبة بنا. بإمكانهم إتهامنا بالتعاون مع الحكومة والچتا والجيش والعمل على شق صفوف الحركة الكُردية كما قالها لنا صراحة عيسى سوار، لكنهم لحسن حظنا تفهموا وضعنا وعلموا من مصادرهم اننا قدمنا اليهم مرغمين.

الاربعاء ٢٠ حزيران ١٩٦٢

قتلاً للوقت همَّ الخوري بوضع مسرحية «سر الإعتراف». البارحة اختمرت الفكرة في ذهنه واليوم يريد وضعها على الورق، هذا ولازال في مطالعته كتاب «أسس الصحة النفسية» وهو شديد الإعجاب بمعلوماته القيمة.

أقبل اثنان هما درباز وزميل له من هرور في إتجاه جبهة عيسى سوار، وللسؤال عن احوالهما، خط المطران رسالة الى عيسى سوار يشكره على السكاير التي أرسلها لهما قبل أيام ويرجوه ابلاغ القس منصور كاهن برسقي ليطمئن الأهلين عن احوالهما.

الخميس ٢١ حزيران ١٩٦٢

عند المساء جاء هم موشي من چەلکێ السفلى وقد إستحصل سماحاً بالسفر الى الموصل أو بغداد لغرض المعالجة، إنتهزا الفرصة ليخطا كلمة وجيزة بالفرنسية على ورق السكاير الى القس فرنسيس اليشوران خوري دهوك، أوعز اليه المطران ان يقضي حاجات الكهنة ودار المطرانية في زاخو.

وقبل ان يغادر موشي إجتمع به المطران وسلم اليه الورقة الرقيقة التي

يمكنه إبتلاعها عند الحاجة وأوصاه قائلاً:

– تذهب الى دهوك وتلتقي الخوري فرنسيس اليشوران في مكتبه وتطلعه على أوضاعنا وقل له ان يقوم بما يلزم وما يمكنه لمساعدتنا.

– نعم سيدنا.

– لا تنس ان تقول له ان يلتقي الاهل ويطلعهم على حقيقة وضعنا فهم لا بُدّ قلقون على مصيرنا منذ شهر، وكما ترى نحن بخير!

– سيدنا، سأقول له انك والخوري تتلقيان ثلاث وجبات دجاج يومياً!

وضحكوا جميعاً وغادر موشي الى دهوك.

الجمعة ٢٢ حزيران ١٩٦٢

أحلام مزعجة مروِّعة وكوابيس يرونها في نومهم يقصُّ الشماس على الخوري أحلامه وهو بدوره يحكي له منامه. وما الحلم إلاّ حصول المرء على أمانيه التي حُرم منها النهار احياناً.

دعاهم الشماس توما الى تناول الفطور والغداء لديه. قتلوا الوقت في الحديث. أقبل السيد رحانا من لدن أسعد، والسيد رحانا آشوري من آل شمسدين ملة المطران في ديانا، وهو بارزاني حميم رافق البارزانيين في حروبهم ونفيهم وهو متحمس للحركة جداً. جاء للسؤال عن احوالهما، وقد بشّرهما نقلاً عن موشي أن يوم انعتاقهما قريب، فما هي إلاّ بضعة ايام وسيطلق سراحهما.. وسيستنشقان هواء الحرية من جديد، وسيرجعان الى الأهل الذين لا بُدّ وانهم قلقون على مصيرهما. سيرجعان الى اعمالهما وقد تراكم العمل وبإنتظارهما ألف مهمة ومهمة. إن التشاؤم طغى على التفاؤل. لا يكادان يصدقان هذه الوعود الفارغة.

بعد ان غادرهم ريحانا، اخذ المطران والخوري يعلقان على ما قاله، بدأه الخوري بقوله:

– لست ادري ما هو مصدر هذا التفاؤل لدى ريحانا، فقبل ايام ذهب هرمز الى اسعد وكان رده قاطعاً. لست ادري ما الذي حصل؟

– ابونا، كل شيء ممكن، لعل الرب نظر الينا بعين الرحمة وشملنا بها وملأ

قلب اسعد رأفة نحونا!

– منذ فترة لم اجد احداً متفائلاً بخصوصنا غير ريحانا، لعله يعرف شيئاً نجهله؟

– ألم تقل انه يتداخل ويعرف بعض الخفايا، لعله سمع شيئا من اقرانه البارزانيين.

– سيدنا ان تفاؤله يحيرني!

كان نهار الخوري فارغاً لم يتصفح فيه كتاباً ولم يمسك بيراع ليخط كلمة من المسرحية. حتى انه حرم نفسه من القيلولة وشعر بالتعب والالم في الظهر. وارتفع مقياس النرفزة لديه، وحتى جرعة الكحول في المساء لم تهدّيء اعصابه التي كانت تثور لأتفه الامور، لاسيما وان حياتهم جماعية لاتساعد على الراحة والإستكانة.

السبت ٢٣ حزيران ١٩٦٢

نهض الخوري مبكراً وكله همّة ونشاط وحيوية، وشحن فكره بالمقاصد الحسنة وصمم على ان ينهي المسرحية اليوم ويأتي على كتاب «أسس الصحة النفسية»، وان يعوّض عما أضاعه يوم أمس من وقت.

انتهي هذا المساء من مسرحية «سر الاعتراف» لكنه لم يأت بعد على الكتاب الذي كان يطالعه. فكر في وضع تخطيط لتمثيلية أخرى لتقوم بنات الابتدائية بتمثيلها. ثم فكر بوضع بعض الأشعار في تلك الطبيعة الجميلة.

كتب في دفتره ما يلي:

«لم تنقطع زمجرة المدافع ودوي انفجارها المتلاحق طوال النهار. لا بُدّ ان معركة تدور رحاها في باتوفا..»

الأحد ٢٤ حزيران ١٩٦٢

يهدران الوقت سكيباً، ساعات طويلة يقضيانها في الحديث مع القادم والغادي. دعتهما ارملة صومو الى الفطور والغداء.

قصد السيد داؤد زيا سيادة المطران ليسمح له بالزواج من فتاة كاثوليكية

من شوادن إلاّ ان المطران احاله الى البطريركية في بغداد لإستحصال الموافقة.

وفد إثنان من مقر أسعد وذكرا لهما ما وعدهما به الدكتور موشي وزميله ريحانا من ان أسرهما لن يطول.

بدأ الخوري يشعر بالالم! في الظهر والرقبة. لا بُدّ وان اصابه البرد ليلاً رغم انهما ينامان داخلاً، والحر يضايقهما.

الاثنين ٢٥ حزيران ١٩٦٢

دعاهما يلدا نيسان الى داره الواقعة شرقي القرية، انه رجل بسيط وخدوم متفان. عاد الخوري الى المنزل بعد الفطور لتوعك مزاجه. في العشرة صباحاً ايقظوه لأن شخصاً غريبا قادماً من سطفلاني يسأل عنه واسمه يوسف، كان قادماً من الجبهة ليواجه أسعد فجاء يستفسر عن المطران، حدثهم عن قرى منطقته.

أخبرهم الشاب صومو من چەلکێ السفلى ان بعض اهالي قرية شوادن سيقبلون غداً للزيارة.

دوّن الخوري ما يلي في دفتر مذكراته:

«سمعنا بقدوم قوة اضافية الى باتوفا، يقال ان معاوية قدم مع جماعة من مرتزقتة ليعزز القوة الحكومية».

الثلاثاء ٢٦ حزيران ١٩٦٢

ما أن همَّ الخوري بالذهاب للصلاة في الصباح الباكر حتى إلتقى زيا أحد أفراد الاسرة المضيفة، وهو يحب المزاح وفي الغالب على حسابه الخاص وزوجته زردي قال له: ان المرگهية من اهالي شوادن كلهم قد اقبلوا وهم بانتظاركم. وكانوا قد بكّروا في القدوم يصطحبون اطفالهم، بعض الرجال وعدد من الامهات مع رضعائهن، اقام الخوري خدمة القداس ثم بدأ المطران برتبة العماد: ذكر واحد وتسع بنات، فإصطفت الأمهات وعلى اذرعهن اطفالهن... ويا للسمفونية الرائعة، صراخ يصم الاذان وحر يذيب الشحم

والعظام لضيق المنزل. ولكن الفرحة كانت بادية على الوجوه واكثرهم إنشراحاً كان سيادته.

فلقد انتعش عندما شاهدهم. حدثهم مختار القرية صليوو والذين بمعيته عن صادقي برو وموقفه تجاه المطران فعرفوا شيئاً عما يكنه نحوهم، وأبدى اهالي شوادن اسفهم لحالة المطران والخوري ورثوا لحالتهم هم الذين حرموا من إرشاد راعيهم.

في منامه شهد الخوري الجيش والقوة غير النظامية زاحفين لإحتلال المنطقة. فرفعوا العلم الابيض لكي لايتعرضوا لهم ويصيبوهم بمكروه.

كتب الخوري في دفتره هذا المساء ما يلي:

«كان دوي المدافع وانفجار القنابل قوياً شديداً يخال المرء انه على بعد غير شاسع عنا... وشوهدت الطائرات تحلق وتحوم من بعيد. اليوم أتممنا شهراً كاملاً في مجاهل هذه الجبال، وكنا قد غادرنا ليوم أو يومين».

الأربعاء ٢٧ حزيران ١٩٦٢

كأن النهار بطوله لايكفي لإجترار الأفكار السوداء بل هناك حاجة الى الليل ايضاً.. ألا يا أيها الليل الطويل ألا إنجلِ.. ويأبى الليل ان ينجلي ويبطئ الإصباح ويتثاقل... سهاد مضن، حر شديد يتصبب العرق من الجسم طوال الليل، والبراغيث هي الاخرى ساعية وراء رزقها تنتجع من جسم الخوري الموضع الملائم لها! اما المطران فقد ماتت اعصابه منذ فترة وخسر المعركة لصالح البراغيث!

يا للصباح القاتم! القاتم في وجه الخوري بالطبع فما كانت الشمس مبعث الشؤم يوماً ولا رمزاً للعتمة والظلمة، ولكن اسأل اليائس عنها وليصفها القانط القاطع الأمل من الحياة..

كأن جسم الخوري غُلَّ وصُفِّدَ بالأغلال.. نفسه تعاف الطعام ولا تطاوعه رجلاه.. لعلها الحمى تسري في كيانه..!

إنبعثت آمال الخوري ففي الرابعة والنصف تقريباً اقبل الملا نورالدين بصحبة الملا يحيى، كان الخوري قد سمع الكثير عن الملا نورالدين ولكنه لم

يكن قد شاهده وجالسه، كان يتكلم العربية بطلاقة، ويظهر على سيمائه الذكاء والحزم على تقاسيم فمه الصغير.

جلس القادمان في الديوان الصغير الذي وفره زيا مع المطران والخوري، وافتتح المطران الجلسة بكلمة شكر على الزيارة والعناء الذي تجشمه الاثنان من مقر اسعد والابتسامة لا تفارق شفتيه:

– انا والخوري لا يسعنا إلاّ ان نشكركما والأخ أسعد على الإهتمام الذي أوليتماه إيانا والحفاوة البالغة والتقدير الجمّ الذي أحطتمانا به منذ ان وطأت أقدامنا ربوعكما الجميلة هذه. ولا أخال أن احداً في مقركما يجهل ما جرى لنا، فقد شرحنا اوضاعنا للاخ ملا حمدي وكاكة احمد شانه والاخ عبداللطيف وكل من جاء لزيارتنا مشكوراً. يبدو لي ان كاك أسعد يعمل ما في وسعه لإطلاق سراحنا وتأمين عودتنا الى زاخو.

– سيدنا، انا شخصيا كلما آتي لزيارتكم ارتاح نفسياً واقضي وقتاً طيباً معكما، فأرجو ان تعتبروا اقامتكم بين ظهرانينا زيارة لأصدقائكم، وإن كنا عصاة متمردين كما تسمينا الحكومة! واودكما ان تعلما باني الى جانب ملا حمدي خير مَن يدافع عنكما لدى القيادة.

ثم إلتفت يميناً وشمالاً كمن لا يريد ان يسمع احد كلامه وإستدار الى المطران والخوري مردفاً:

– لقد اسرَّ لي اسعد انه سيفاتح البارزاني بموضوعكما قريباً للبت فيه، فما هي إلاّ أيام وسنعرف كل شيء بوضوح.

بدت علائم الاكتئاب على وجه الخوري وأخذ يردد:

– هذا شهر نحن ننتظر هذا القرار وذاك القرار وهذه المعركة وتلك المعركة، حتى متى؟ هل من نهاية يارب!

– أبونا، ارجو ألاّ يتكدر خاطرك، فأوضاعنا على جبهة الگولي اخذت تتوضح معالمها، فبعد معركة خيزاڤاك شن الجيش هجوماً آخر علينا ودحرناه واوقعنا في صفوفه الضحايا الكثيرة، والآن وقد انسحب من باتوفا، زال الضغط على قواتنا، ونحن بانتظار المعلومات التي تؤكد انسحابه من ئاڤگەنى ايضاً. ونعتقد انه سيتمركز في برسڤێ حيث

سنوالي عليه الهجمات هناك. لقد اوقعنا في صفوفه الخسائر الكبيرة، اما ضحايانا فكانت ست إصابات وشهيدين.

ثم انهى الجرعة الاخيرة من قدح الشاي الذي كان يشربه وهو يقول:

– لن يطول بقاؤكم معنا مع الأسف، كنا نود ان تبقوا فيما بيننا لنتمتع بمجالستكم ومحادثتكم.

غادر الضيفان وعاد الخوري والمطران الى تقوقعهما وقد تكدر خاطرهما لا يعلمان متى يأتي الفرج.

الخميس ٢٨ حزيران ١٩٦٢

لم يطيقا النوم في الغرف، لذا ناما على السطح، وشتان الفرق بينهما. كان نوم الخوري خفيفاً وجسمه نشطاً رغم انه لم ينم اكثر من أربع ساعات.

زارا چەلکێ السفلى، وقضيا ساعات على الخابور وتناولا الغدا ء عند موشي وثرثرت زوجته طويلاً فكانت ناقمة على الكل وفي الوقت نفسه مرحة طروبة على كبر سنها. عادا وفي طريق عودتهما الى الدار زارا كنيسة مار موشي فوجداها في حالة يرثى لها فبابها مكسور وقدسيتها مدنسة، لا بُدّ وان الرعاة المحليين قد إتخذوها ملجأً لماشيتهم!

الجمعة ٢٩ حزيران ١٩٦٢

استدعي الخوري ليشيع عجوزاً الى مثواها الأخير في چەلکێ السفلى وكان النهار حاراً والطريق وعراً، ثم عاد الى القرية بعد مراسيم الدفن وكادوا يختنقون في الغرفة الصغيرة حيث إجتمعوا للعزاء. رجع الخوري ظهراً بعد أن تصبب عرقا لدرجة ان ملابسة السوداء إبيضت.

10

قرار البارزاني

قبل ان يغادر البارزاني منطقة گارا وبەرواري بالا، انفرد باسعد خۆشەڤي الليلة الاخيرة في جلسة خاصة يعطيه التعليمات النهائية بشأن الهيزات الأربعة التي اسسها في باديناں منحه فيها السلطة العسكرية المطلقة عليها. إستهل البارزاني الجلسة بقوله:

– انا راض جداً من سير الأمور، فقد ابليتم بلاءً حسناً في معارك الخريف والشتاء والربيع الماضية، لقد هب شعبنا وثار وصمدنا واصبحت لنا بعض الأراضي المحررة، نقيم عليها مقراتنا الحزبية والعسكرية ويقوم حزبنا بالتعاون مع قيادة الهيزات بحل النزاعات المحلية دون اللجوء الى الأجهزة القمعية المتفسخة للدولة وإذا سارت الأمور على هذا النحو سنحرز النصر المؤزر بإذنه تعالى وسنرغم حكومة الزعيم على التفاوض، فهدفنا هو ان نرغمها على التفاوض لنيل الحقوق الإدراية التي يطالب بها حزبنا. واني ارى إن هيز زاخو يلعب دوراً ريادياً في هذا المجال.

– انا اخشى على عيسى سوار، فهو متهور قليلاً، وبعيد عني نسبياً لألجم نشاطاته العسكرية الجريئة.

– هل تتصوره يشق عليك عصا الطاعة العسكرية؟

– لا أقول ذلك، وإنما اراه ينفرد احياناً ببعض قراراته دون العودة الى قيادة لەشكرى يەک. وقد طبق احكاماً عرفية لاسابقة لها، كأنه الشيخ وكأن زاخو جزء من بارزان!

– أسعد، أعطه بعض حرية التصرف، فالهيز الذي بإمرته له موقعه

الستراتيجي الخاص، ومنطقته ليست متجانسة كآميدي ودهوك وآكري، فهي مرتع خصب لمخابرات الدول الثلاث، واني واثق من انها تتكالب لمعرفة ما يجري هناك، كما أسمع انه اسرى الرعب في مفاصل قيادة الفرقة الرابعة في الموصل حسب ما اسرَّ الي بعض الذين قدموا مع حسن عبود آمر موقعها خلال المفاوضات، لقد كان تذمرهم منصباً على قاطع زاخو. ولهذا سببه فقد أحاط عيسى نفسه بمجموعة ممتازة من القادة العسكريين المحليين.

– بعد النصر الكبير في گلي زاخو في نيسان الماضي وأسره فوجاً كاملاً بمعداته العسكرية وتجهيزاته، طلب إليّ ان ينظّم قوة خاصة لضرب منابع النفط في عينزالا، وكما لا يخفى عليك ان مثل هذه العملية يستغرق تنفيذها أربعة أيام على أقل تقدير ثلاثة منها للذهاب والإنسحاب ويوم واحد للتنسيق والتنفيذ في مناطق لا دراية لنا بها، إنطلاقا من مقر الهيز في أرمشت، بالإضافة الى عبور نهر دجلة عند قريتي قسر ملا طيب وگرابور ذهاباً وإياباً. فإستمهلته ريثما افكر بالامر ملياً بعد إستشارتك.

– افسح له المجال ليظهر قابلياته العسكرية والإدراية، ألا تتذكره، كان شاباً من أصغر اتباعنا سنا عندما انسحبنا من ايران الى الإتحاد السوفييتي على إثر سقوط جمهورية مهاباد، انا متأكد من انه بالتعاون مع معتمدينا في عشائر هاجان في منطقة سيميل وعشائر موسەرەشي وهەسنان وميران على الضفة الغربية لدجلة، ولنا بينهم المناضل بوزي، سيستطيع إنزال ضربة قاصمة بمنابع النفط فيها، ستكون باكورة العمليات الكبرى لثورتنا. قل له عني أن تكون القوة صغيرة الحجم يسري افرادها ليلاً وينامون نهاراً حتى يبلغوا مشارف الهدف ويجروا الإستعدادات اللازمة مع المخلصين مثل بوزي واعضاء لجنة محلية زمار للپارتي، واني أرى ان يُناط امر هذه العملية بعيسى سوار نفسه يساعده هاشم ميروزي، واؤكد على ان تحاط العملية بالسرة التامة لا يعلم بها إلاّ الذين لهم علاقة مباشرة بأدائها.

قطع الرجلان حديثهما عند دخول غلام يحمل اليهما قدحين من الشاي، وبعد ان وضعهما أمامهما ترك الغرفة واوصد الباب خلفه، فعاد الرجلان الى الحديث، إستأنفه البارزاني يقول:

– أسعد، انت تعلم اكثر من غيرك انا لا أستطيع البقاء الى ما لا نهاية في بادينان، أمامي مهام اخرى كثيرة، فقد إلتحق بالثورة عدد كبير من العسكريين الكُرد مثل العقيد الركن المدفعي عزيز آكريي والرئيس الأول المدفعي بكر عبدالكريم والملازم المدفعي عزيز أتروشي، واني واثق من ان آخرين سيلتحقون يجب الاستفادة من خبراتهم العسكرية. ان اسلوب الكرّ والفرّ والضرب والهرب والإختفاء في الكهوف لم يعد كافياً بعد اليوم، يجب ان تكون لنا أراض محررة لا تطالها يد الحكومة نعيش عليها أسياداً احراراً، نقيم عليها ادارتنا المحلية ومقراتنا يعود اليها المقاتلون من العمليات العسكرية للراحة ولتأوي أسرهم ايضاً، وهذا يقتضي ان يكون لنا خط جبهة طويل متواصل من زاخو الى خانقين لا يستطيع الجيش إختراقه. نحن بحاجة الى تشكيل هيزات جديدة في مناطق اخرى من كُردستان على غرار الهيزات الاربعة التي تؤلف لەشكرى يەك. إن الكفاح المسلح علّمنا ان العمل يجب ان يكون منظماً ومنضبطاً فالصيف قادم وعلينا ان ننظم مقاومة عنيفة لإثبات وجودنا، اريد ان نقوم ببضع عمليات كعملية گلي زاخو ومعركة خيزاڤاك وعملية عينزالا المزمعة لكي يفقد الجيش توازنه فتعود الحكومة الى رشدها، انا ذاهب الى منطقة گلي علي بگ، ومنها الى حوض رواندوز فبالەكيان لتحريرها من نفوذ الحكومة، اود ان اجمع الفصائل المقاتلة هناك تحت قيادة واحدة وتشكيل هيز بالەكيان فهي منطقة حصينة تصلح لتأسيس مقرنا العام فيها لربط بادينان بمنطقة سوران وإلا انقطعت علاقتنا مع قواتنا الموجودة في سوران. وفي طريق سفري سأمضي أسبوعاً او نحوه لدى حسو ميرخان لأن هيزه يتعرض لهجمات شرسة في گلي زەنتە، اود ان ارفع معنويات مقاتليه. كل ما أطلبه منك ان تكون أباً للصغير وأخاً للكبير، إياك والظلم فمرتعه وخيم، مارس العدل مع

الحرص على مصالح الثورة، لقد بدأناها ضد الظلم والإستبداد بأعداد قليلة وعتاد أقل، ولا موضع للفشل في حساباتنا، بدأناها بالقليل الذي نحمله في جيوبنا من دراهم، واليوم اصبحنا في وضع يمكننا معه صرف مرتب بسيط للمقاتلين سيكون بداية لما هو افضل واكبر، سلاحنا وعتادنا لم يكن إلاّ ما يملكه الفلاحون البسطاء، واليوم اصبحنا نملك الرشاشات والمدافع الجبلية بفضل ما غنمناه من الجيش. أسعد! اريدك ان تثق باننا سوف نواجه الجوع والعري في هذه الجبال دفاعاً عن شعبنا لكننا سننتصر في النهاية، كما اريدك ان تثق باني اذا حصلت على كسرة خبز سأقتسمها معكم. ان الكُرد وسائر الاقليات في كُردستان معنا من زاخو الى خانقين والشعور بالكُردايەتي عارم لم أرَ له مثيلاً في ثوراتنا السابقة اكِّد للپيشمەرگه انهم ليسوا وحدهم المقاتلين، فالفلاح القروي مقاتل والكاسب الذي يسكن المدينة مقاتل، واذا إعتدوا على احد فكأنما اعتدوا عليَّ بالذات، انه لشرف ان نحمل السلاح على اكتافنا ولكنه شرف مضاعف ان نطعم مقاتلاً في الجبهة او نحمي شرف إمرأة او نكفكف دمع صبي او نطمئن شيخاً في بيته وقريته.

اني ارى بوادر تضعضع وضعف في الجيش والحكومة في الأفق، والزعيم لا بُدّ ان يفاوضنا حال إحساسه بأن موقعه في خطر.

سأغادر غدا وسأترك لك من قواتي الخاصة هاشم ميروزي وملا شني قرتاس فهما من خيرة ما لدي، ولك ان تنسبهما حيثما تشاء، هل ترغب في أن اترك ابني لقمان ليساعدكم؟

– نحن نفخر بلقمان، فقد ساهم بشكل فعال في معارك زاويته وسواره توكه الشتاء الماضي، لكني اخشى ان تحتاجه لمرافقتك، انا أرى ان يصطحبك حيثما ذهبت، فانت بحاجة اليه واترك لي هاشم وملا شني، سأنسب ملا شني لهيز آكري لمساعدة حسو وحاجي أخيه، اما هاشم فسيبقى لدي ليقود كتيبة إسناد في مقر اللشكر ارسلها للمهمات الخاصة، او ارسله ليعاون عيسى سوار.

– اذن سآخذ ملا شني الى حسو عند ذهابي اليه لأهبه بنفسي له لتعزيز

معنوياته!

– جيد، لي بعض الملاحظات الأخرى، لا اود اقحامك بها، بالوقت ادركنا والساعة متأخرة وانت بحاجة الى قسط وافر من الراحة قبل السفر الذي سيستغرق يومين للوصول الى شكەفتێ مقر هيز آكري وشيخان.

أطرق اسعد برهة ثم إستدرك:

– أقلتُ يومين؟ لا بل اسبوعاً او اكثر! ففي كل مرحلة تتوقف سيضطرك الموقف على المكوث والمبيت لأن اهالي المنطقة متلهفون للقائك.

– اسعد، لن اغادر حتى تخلي ما في جعبتك من اسئلة واستفسارات. اخبرني ماذا يدور في خلدك؟

– هناك فتاة اسمها مرگو، انخرطت في سلك الپيشمەرگه، يشهد الجميع بشجاعتها في المعارك، فهي تتقدم الرجال وكأنها في نزهة، واني رغم تأييدي لمشاركتها في قوات هيزنا إلاّ اننا دفعنا ضحايا كثيرة بسببها، فهي متهورة، لست ادري كيف التعامل معها فالمسألة حساسة أولاً لانها فتاة، وثانيا لأنها آشورية، لا أريد اثارة حساسية اخواننا المسيحيين في المنطقة فقد اصبحت معبودة الپيشمەرگه والجماهير يحملون صورها في جيوبهم وفي محفظات نقودهم.

– اسعد، انت تعرف ان مجتمعنا الكُردي محافظ، اني رغم كوني اؤيد مشاركة العنصر النسائي في الثورة إلاّ ان وجود فتاة واحدة في صفوف آلاف الرجال امر شاذ غير طبيعي. ارى ان تبادر بطريقة دبلوماسية حاذقة الى تجميدها في الوقت الحاضر اذا كان وجودها سبباً في دفع ضحايا دون مبرر، فهناك مهام اخرى للعنصر النسائي ليست اقل اهمية من التقدم نحو الجبهات.

– ألا تعتقد ان ذلك سيؤثر على تعلق المسيحيين بالثورة؟

– اترك هذا لي، اذا بلغ الامر ذلك الحد، فسأناقشه مع رؤسائهم عند الوقت المناسب.

– نعم ما فعلت! ذكرتني بقضية مطران زاخو الذي إعتقله عيسى سوار وهو الآن في چەلكێ رهن الإقامة الإجبارية.

– مطران زاخو معتقل؟ ماذا تقول؟ المطران درجة كبيرة عند المسيحيين، ما الذي اقترفه؟

– نعم انه معتقل، ويرافقه سكرتيره الخوري. وكلاهما من قرية آرادن التي كنت مدعواً فيها قبل اسابيع لدى مام ججو الرجل الوقور الذي ظل يمازحك طوال المأدبة، يبدو من رسائله ومن خلال احاديثه مع ملا حمدي انه ذو ثقافة عالية وقد عاش في امريكا فترة طويلة، وقيل لي ان الحكومة إستغلت طيبة قلبه وبساطته فغررت به بإرساله لزيارة الحاج صادقي برو للقيام بمهمة وساطة بينه لغرض تسليم نفسه على يده وإعلان ولائه للدولة.

– عجيب! ألا تعرف الحكومة ان صادقي برو لن يسلم نفسه لها لو وعدته ملك الري؟ ألم تقتل الحكومة ابنه قبل اسابيع؟ عجيب امر هذه الحكومة! اني ارى انها مؤامرة على المطران المسكين. أسعد! ان هذا المطران ليس غريباً فهو من اهالي منطقتك، ولك من اقربائه العديد من الپيشمەرگه، ثم ان اخلاء سبيله أداة دعائية وإعلامية للثورة يجب الإستفادة منها، رغبتي هي ان تبرق الى عيسى سوار بالكف عن ملاحقته!

– بعض الذين حققت معهم في امره يعتقدون ان اغوات زاخو وراء زجه في التهلكة. عيسى سوار وملا حمدي وكل الذين قابلوه وكلموه لهم عين الانطباع، يعتقدون انهم غرروا به وورطوه، فقد ارسله عيسى سوار اليَّ مخفورا لأبتّ في امره، وانا حائر بشأنه. ان جريمته دون النظر الى اوضاعها وملابساتها، خيانة. فان اعدمته بموجب قراراتنا بإعدام الخونة، أوقعنا انفسنا في ورطة لان ذلك سيؤلب الرأي العام المسيحي في كُردستان وخارجها ضدنا، ونحن في غنى عن هذا، وان اخليت سبيله إعتقلته الحكومة حال عودته لأنه دخل مناطقنا المحررة واعتقلناه لمدة قصيرة وعاد سالماً، مما سيجعل الحكومة تفكر بأن اتفاقاً قد حصل بيننا وبينه يعمل بموجبه لحسابنا. انها مشكلة، انا اخشى اطلاق سراحه لاني بذلك سأرسله الى المشنقة!

– وجهة نظرك صائبة، ولكن هل يود العودة الى زاخو؟ هل افهمه احد ما

تنطوي عليه عودته من خطر الموت؟

– بلى، اوفدت اليه ملا حمدي وملا نورالدين ليتأكد من انه يعرف ما سيلاقيه عند اطلاق سراحه وعودته الى زاخو.

ساد صمت مطبق قصير قطعه أسعد مضيفاً:

– هناك امر آخر، عيسى سوار فرض عليه مائة بندقية ومئتي حمل حنطة، جزاءً لما فعله!

– أسعد، هذا منتهي الظلم! اذا كان عيسى يعتقد انه أُجبر على ما فعله تحت ضغط الحكومة، فما معنى فرض العقوبة عليه؟ والله، لو فتشت كل قرى منطقة زاخو لما وجدت فيها مائة بندقية حتى لو توفر لك المال لشرائها نقداً.

أما الحنطة، فالحصاد لم يبدأ بعد، فمن اين يتدبر المسكين مئتي حمل منها. أليس هذا مطلبا تعجيزياً؟ انه لعمري ظلم صارخ، هناك جانب أمني للقضية فجمع هذا العدد من البنادق وأحمال الحنطة لا يمكن ان يجري في مناطق محررة وشبه محررة دون ان تعلم بها الاجهزة الامنية للدولة، وهذا معناه ان المطران المسكين سيواجه التهمة إن لم يكن اليوم فغداً لأن المعلومات ستصلها عاجلاً ام آجلاً. هذا الذي احذركم منه دوماً.

نحن لا نستطيع دفع الظلم بالظلم. لا تجعلوا الاهالي يبتعدون عن الثورة، ولا اريد ان تحملوهم ما لا طاقة لهم به.

– انه يرسل اليّ رسالة تلو اخرى يطلب مواجهتي، وانا لا اعرف كيف اواجهه، لذا اتهرب معللاً ذلك بكوني منشغلاً بالامور العسكرية. أبعث اليه احمد شانه آمر البتاليون الاول في هيز آميدي وغيرة ليزوروه ويوفروا له سكائره واجعل علي خليل يجيب على رسائله.

– لا يا أسعد، هذا ليس من شيمك وطباعك، اني توسمت فيك الصراحة والإستقامة وممارسة العدل، منذ ان كنا في الاتحاد السوفييتي وقبلها في ايران.

لازم البارزاني الصمت برهة انتصب مردفاً كالذي راودته فكرة جديدة:

– هل فاتحتموه بشأن البقاء عندنا ليصبح مطرانا لكُردستان؟

– بلى، لكنه رفض جازماً معللاً ذلك بموافقات البطريركية في بغداد والپاپا في روما!

ثم قطب اسعد يستفهم:

– ماذا تراني أقول له والحالة هذه؟

– صارحوه! قلت لي انه يرتاح الى ملا حمدي، ابعثه اليه قولوا له ان سبب ابقائك عندنا هو لاننا لانعلم كيف نتعامل مع مشكلتك. فاذا اخلينا سبيلك وذهبت الى زاخو، نحن لايمكننا ضمان سلامتك من بطش الحكومة لأنها ستتهمك بالتعاون معنا.

وسيقوم نفس المرتزقة الذين زجوا بك في هذه المعمعة بإتهامك بشتى التهم. اما اذا كانت رغبتك الذهاب فنحن على استعداد لمرافقتك حتى انتهاء حدود مناطقنا المحررة. واذا رغبت البقاء في المناطق المحررة فعلى الرحب والسعة وأهلاً وسهلاً بمطران كُردستان.

السبت ٣٠ حزيران ١٩٦٢

الأيام مملة تنسلخ كسولة متباطئة، يعود المطران والخوري الى افكارهما السوداء. حاول الخوري عرض فكرة المسرحية على المطران، فحكم عليه وعلى روايته بالسخف قبل ان يتصفحها ويقرأ منها صفحة واحدة. واخذ الخوري يفكر، فيما لو يُعرف الكتاب من العنوان؟ ربما! ولكنه تصور حكم المطران على كتابه حكماً جائراً... أما سيادته فراح بشغف يقرأ بعض القصص للصغار وهو يبدي اعجابه بها، واحس الخوري ان سيادته لا بُدّ يشعر بالنفور منه، وبكل ما يتعلق بشخصه وهو ما لا يعاتبه عليه، فهما منذ فترة يعيش واحدهما على أعصاب الآخر، واخذ الخوري يشعر بالحذر الذي يمارسه المطران في تعامله معه بسبب جرأته وصراحته في عرض الحقائق والوقائع سافرة من غير مواربة.

كان الخوري غافياً لما اقبل الشماس يونان يوقظه ليستعجل ويتهيأ للسفر، ذلك ان ملا نورالدين عاد من المقر وفي جعبته أخبار سارة!

واخذهم الملا نور الدين على إنفراد وحدثهم عما جرى بينه وبين اسعد وتوسطه والحاحه الشديد للإفراج عنهم وإطلاق سراحهم. فقطع اسعد له عهدا بإخلاء سبيلهم بعد أيام لا تتجاوز الأسبوع. ولم يفرض عليهم شروطاً سوى عدم التعاون مع الچتا، ولم يطلب منهم معونة، لا ولا المطالبة بحقوقهم تجاه السلطات المسؤولة... ولحد الآن خاب كل من راجع بخصوصهم، حتى لم يسمح لموفد البطريركية بالمجيئ لمقابلة أسعد... ولم تفد التوصيات... يظهر ان بعض المغرضين كانوا قد اوغروا صدور المسؤولين ووشوا بهم، على خلاف ما كانوا يتوقعون.

عاودهم الأمل بعد اليأس، واصبح الخوري يتوقع الفرج رغم عدم اطمئنانه الى الوعود الكثيرة.

الأحد ١ تموز ١٩٦٢

بعد ليلة ليلاء من السهاد ومكافحة البق والبرغوث، صبّح الخوري ثقيل الظل متجهماً، وبعد الفطور لدى ياقو توجهوا الى چەلكێ السفلى لإقامة صلاة الثالث، استقبلهم الاهلون بالترحاب وما أن تجاوزت العاشرة والنصف حتى مُدّ البساط وقُدم الطعام، فلا هو بالفطور ولا هو بالغداء، فحُرموا غداءً شهياً.

تفيأوا ظلاً، وجاءهم رسول بشائر. شخص من قرية تشيش يدعى چونا، جاء أولاً للإستفسار عن سيادته واخبرهم عن مجيء كاهن لمقابلة اسعد خۆشەڤي، وهو موفد بهذه المهمة الخاصة. وعرفوا من الأوصاف انه القس فيليب الراهب، وتيمنوا كل الخير.

تعرفوا على كثير من اهل القرية، وتحدثوا وحدثوهم، وصلوا صلاة المساء في القرية، وعادوا الهوينا وكلهم امل بالإلتقاء مع القس فيليب. وخاب ظنهم اذ لم يجدوا احداً في انتظارهم.

وبينما كانوا ملتهين في صنع الشموع اذا بأمرأة تقول في دهشة هوذا كاهن اقبل. فإستدار الخوري واذا به القس فيليب.

تعانقوا في شوق واستفسروا عن احوال بعضهم، وامطره الخوري سيلاً من الاسئلة دفاقا ملحاً.. يا لفرصة اللقاء بعد طول الغياب، وفي الغربة

ووحشة البعاد. لم يكن موفداً من غبطة البطريرك، لا ولا من قبل سيادة المطران عبد الأحد صنا أسقف ألقوش.

إنه اتى الى قرية داؤودية ومنها وجه رسالة الى اسعد يستأذنه بمواجهته وجاء الرد بالإيجاب، فقصده ورحب به اسعد ووعده الوعود المغرية. واقترح الكاهن ان يمهله ريثما يستشير الرؤساء اذا لم يكن محذوراً من عودة المطران والخوري، لأن اسعد يخشى من وقوعهما بيد السلطات الحكومية وكأنهما شقاة عصاة لا علم ولا دراية للسلطات الحكومية بهما. وهل انهما يريدان العودة! وكيف لا... العالم يتوهمهما في عطلة متعة وإصطياف وتنزّه..!

وقرّ الرأي اخيراً على ان يخط القس فيليب رسالة الى اسعد يقول فيها: بعد الروية والتفكير واستشارة سيادة المطران وجدت ان لا داعي للتمهل والكتابة الى الرؤساء، فسيادته مصمم على العودة مهما كلفه الأمر، وإن أُلقي القبض عليه وزج في غياهب السجون.

وأملى سيادته رسالة طويلة الى أسعد، انتهى الخوري من نسخها في الثانية عشرة ليلاً، فحواها الشكر على الضيافة والأريحية والإهتمام بشأنهما والتأكيد له بان ما قاله الملا نور الدين سيأخذانه بنظر الإعتبار وانهما يريدان العودة عاجلاً سريعاً وعن طريق مناسب بعد تزويدهما بالرجال والبغال.

اراد سيادته في طريق العودة ان يمر بشوادن والمكوث بضعة ايام، فعارض الخوري ومانع الى درجة بلغ معها التوتر اشده بينهما، وكان الكل من جانب الخوري. فلو كان يُستشار لما وقع في بعض المآزق المحرجة، ولما كان هذا مصيرهم. عند العودة الى زاخو، كان الخوري يفكر وينوي الإبتعاد عنه اذا تمكن ليخلي الجو لغيره قبل ان يتصادم معه وتتكدر الخواطر، فالرجل يتقدم في السن وعلامات التعب اخذت تظهر عليه واعصابه اكثر من متوترة، لم يبق له منها شيء وكان الخوري يرى ان الانسب ان ينسحب ويدعه يتدبر امره، وإن كان قلبه لايطاوعه لوشاجة الدم والقربى.

الاثنين ٢ تموز ١٩٦٢

قبل ان يقيم الخوري القداس، تفحص رسالة القس فيليب، واكملها له لأن

الكاهن كان غريباً عن مشاكلهما وغير مطلع على عقدها بشكل تام. أوفدوا المختار هرمز حاملاً رسائل ثلاث: الاولى من المطران، والثانية من الأب فيليب والثالثة للشماس خوشو مضيفهم.

لا يؤمن الخوري بالتشاؤم ولا يعرف تأويل اصوات الطيور، لكنه استيقظ على صوت غراب، واخذ يفكر بما سيلاقيه هذا النهار الذي بدأه بأصوات هذه الطيور المشؤومة. وبينما هو في طريقه الى الكنيسة زلت قدمه وانغمست في أوحال الساقية!

كانوا يصلون صلاة المساء عندما اقبل الملا حمدي راكباً وتوقعوا أمراً خطيراً، تصافحوا بعد الصلاة ووجهه يطفح بشراً، كان حاملا البشائر لهم: لقد أُطلق سراحهم!! لم يكد الخوري يصدق من شدة الفرح، اسعد يعتذر عن القصور! يا للشعور الرقيق السامي!!

أمضوا ساعات طويلة في الكلام. واخذ سيادته يضع النقاط على الحروف. وتسامروا الى ساعة متأخرة وكلهم امل مشرق بسام. غير ان اهل الدار اعتراهم الغم للفراق.

الثلاثاء ٣ تموز ١٩٦٢

حضرت القرية عن بكرة أبيها، وسيادته يوجه اليهم كلمة شكر ودعاء، توصيات ورسائل وودا ع..

مروا بچەلکێ واجتمع الاهلون في دار الشماس موشي ليتوادعوا معهما. وعبرا الجسر على الخابور ولكن الخوري لم يخش هذه المرة على مصيره. عبرا والبشر يطفح في قلبيهما وهما يمزحان ويرسلان الضحكات عالية.

وصلوا مصيف اهل چەلکێ وهو على مسافة ساعة او اقل من الخابور. وتناولوا هناك غداءً شهياً ممزوجاً بالانس والبشاشة والأدعية الحارة. رافقهما رهط من الشباب المسلح يزهو كل بقوامه ورشاقته وخفته. ساروا الهوينا الى ان بلغوا قرية جدودهما شوادن التي منها ينحدر كل آل ريس الذين يسكنون منذ قرن في قرية رادن الآن. تلك القرية الآمنة الصغيرة الغافية بين هضبتين، بيوت صغيرة تلاصق سفح منحدر الجبل ومعبد متهدم اثري! وفكر الخوري لا

بُدّ وان احد اجداده وقف فيه للصلاة خاشعاً ضارعاً! القرية شبه خالية من السكان المبعثرين هنا وهناك يحتمون بالصخور والكهوف وظلال الاشجار من نقمة الطائرات! وعن سرور الاهلين فيها بمقدمهم فحدِّث ولا حرج انها أول مرة يزور فيها مطران تلك القرية. نزلوا ضيوفاً على مختار القرية صليوو، رحب بهم الكل وتلقوهم ببالغ البهجة والسرور. اطالوا السهرة وطار النعاس، فطلبوا العون من فرعون، من زجاجة الخمر الى ان اتوا على آخر قطرة فيها، الشماس يونان يساعده الخوري. كانت ليلة رائعة كاد الهواء يكون فيها قارساً.

الأربعاء ٤ تموز ١٩٦٢

بكروا في النهوض، إذ كان هناك فوج من المتقدمين من الإعتراف بالانتظار. بعد القداس تهيأوا للسفر وودعوا اهل القرية ومضيفهم الشماس خوشو والمختار صليوو، وفي التاسعة ركبوا الخيول يحدوهم الأمل وتسرع بهم أقدام هذه الحيوانات الفخورة. وفتح الخوري الحديث مع الملا حمدي وامطره سيلاً من الاسئلة عن الپارتي وميوله السياسية واهدافه وعن قوته وتعاونه مع الدول الاجنبية.. ساروا مدة طويلة دون ان يلقوا معينا ليطفئوا به لهيب عطشهم.. قرى خاوية خالية من السكان، اشجار باسقة وارفة الظلال، سيول وسواق وانهر صغيرة واشجار الحور والجوز تغطي هيكتارات من الأرض، انها ثروة طبيعية هائلة لو استُغلت.. اخيراً وصلوا باتوفا! أثر بعد عين! باتوفا التي مروا بها قبل اربعين يوماً، الآهلة، العامرة بالقوة العسكرية والقوات الموالية والمنازل الفخورة وان خلت من اهلها، لكنها الان فحمة سوداء لم يبق فيها بيت قائم غير الدوائر الحكومية، كلها احرق وهدم! يا للوحشية والهجمية اللإنسانية، لا زالت هناك بعض الجثث والاشلاء نصف مدفونة تناولوا غداء شضفا، وسعار عطشهم لا تروي غلته مياه الدنيا كلها!

ساروا ساعات في منحدرات ومنعطفات، وزروع دانية القطوف، هذه بێخبارێ قرية مضيفهم خدر الذي امضوا ليلة لديه في مصيف ئاليشك، احرقت فيها اربعة منازل. تذكروا مضيفهم وحملهم اليه جناح الخيال واخذ

الخوري يتمنى لو يتذكر اسماء القرى التي مروا بها، من شوادن الى شلينێ وشيلانێ وصوريا وبيزهي ومقر ناحية الگلي قديما وغيرها وغيرها قرى خالية خاوية، هجرها اهلوها لائذين بالكهوف والمغائر والوديان السحيقة العميقة.

ودنوا من ليڤۆ بحذر لأنهم يواجهون المعسكر، وسيُرصدون حتما ولعل المدافع منصوبة بإتجاههم فتستهدفهم. وعلى بعد زهيد من القرية شاهدوا فلاحات عائدات من الحقل، ربما من الحصاد، كدن يحتضن الخوري من غمرة الفرح الجامح.

وخرجت القرية بكبيرها وصغيرها في لمح البصر لإستقبالهم.

عند ذاك نسوا ما كابدوه من مشقة وما لاقوه من الاهوال والمخاوف، بينما هم يسمعون: ها قد قدم راعينا، قدم ابونا وحامينا، ودموع فرح وتبادل تهاني.

نزلوا ضيوفا على الشماس باليوس، نظافة واعتناء وطعام شهي وسرير انيق ونوم هنيئ.

الخميس ٥ تموز ١٩٦٢

كان في انتظار الخوري عشرات المتقدمين للإعتراف، عرفهم الخوري جميعاً وهم اكثر من ثلاثين تائب وتائبة بعد القداس.

وقضوا النهار مع سليمان حاجي بدري واحمد طيار وانزووا على انفراد مع الملا حمدي يعطيهم التعليمات اللازمة والتوجيهات الضرورية.

زحف المساء بطيئاً وغادروا القرية متسترين بالظلام، بارحوا القرية في التاسعة مساء وتلصصوا حتى اصبحوا على مقربة من المعسكر المخيم قبال برسڤي، وذكرهم الهلال بليلة سفرهم الى هرور، وغاب وراء تلول ناڤكەندالا وقطعوا المسافة المتبقية في ظلمة حالكة. ومن بعيد بدا بصيص نور من موقع في قرية برسڤي.

تذكر الخوري نيرون.. وحريق روما.. على اليمين وعلى الشمال من معسكر الجيش نيران تلتهب في الزروع وبين الاحراش تلتهم الاخضر واليابس وتقضي على المراعي والاشجار البرية، يا لهول الكارثة! انها لنكبة عظمى!

مئات بل آلاف الأسر حكم عليها بالجوع اذ كان هذا موردها الوحيد.. كنت ترى لهب النار ترتفع وتتسع وتكون اكليلاً يتلألأ على قمة مرتفعة، وفي السهل يسطع الوهج وينعكس على رؤوس الاشجار.. وانقطع الحديث وسكون الليل لايقطعه إلاّ حوافر الخيل والبغال، والرهبة ملأت قلوبهم وكانوا يسرعون في السير تلقائياً.

وكفراشة الليل جذبهم نور مصباح في بيادر القرية، واجفل الفلاحون حين شاهدوهم ورافقهم احدهم الى القرية وترجلوا امام دار مشو آغا بعد الحادية عشرة ليلاً.

سرعان ما سرى الخبر وتجمع الرجال.. ولكن سيادته أمر ألاّ يقصدهم أحد خوفاً من جلب إنتباه الرصد نتيجة تنقل المصابيح.. وناموا في ساعة متأخرة جداً.

الجمعة ٦ تموز ١٩٦٢

يحدوهم شوق ملحّ للتوجه نحو زاخو، اقلتهم سيارة الى آمر الفوج الثالث، اللواء الحادي عشر، وكان الآمر برتبة عقيد مستلقياً جثيثاً نصف عار.. رحب بهم وابدى اسفه الشديد لما اصابهم خلال أسرهم.. كان العقيد طيب القلب قليل الخبرة اثار ضحك الخوري عندما قال: نشكر لسيادتكم جهادكم، وسوف نكلفكم بمهمة اخرى، وهي ان تزوروا القرى المتبقية لترشدوهم الى الصراط المستقيم..! ثم احالهم الى آمر اللواء في زاخو، وسرعان ما تجمهر المتفرجون، «المطران أقبل!» البعض لايصدقون عيونهم، وراحوا الى الثكنة. وكان عقيد ورئيس ركن في خيمة أمام رزم من الاوراق.. قدموا ذاتهم وقال الرئيس: هل من خدمة نؤديها؟ قال الخوري في نفسه: إنه «أطرش بالزفة»! إنهم لا يعلمون شيئاً مما كان!

كان آمر اللواء غافياً.. لا بُدّ وانه تعب بعد انسحاب الجيش من ئاڤگەنى هذا الصباح..

في السادسة مساءً، قابلوا الآمر ابراهيم فيصل الأنصاري الذي استُقدم من كركوك الى زاخو للإشراف على انسحاب الفوج من باتوفا وئاڤگەنى،

شاب ممشوق القد اسود العينين عسكري جنتلمان، واخذ يتخطى جيئة وذهاباً في الخيمة امامهم يتباهى ببطولاته في باتوفا وئاڤگەنى وكيف انه فك الحصار المفروض على الفوج هناك وتمكن من سحبه ودحر العصاة ووصف المعركة بانها كانت «تضاهي معارك كوريا» التي ربما شاهد افلامها الحربية في المركز الثقافي الأمريكي ببغداد!

لم ينطق المطران او الخوري ببنت شفة، فهما يعلمان بما دار في المعارك التي طارد فيها الپيشمەرگه فلولهم حتى الابواب النظامية لمعسكري باتوفا وئاڤگەنى، وكيف ان ضباط الجيش كانوا يختبؤون في الخنادق هرباً من قذائف الهاون القادمة من الجانب الآخر بينما أنصاف أسراب القاذفات والمقاتلات تحوم فوق رؤوسهم!

لدى خروجهم من خيمة الآمر كان المطران يقول للخوري:

– أسمعت النفخ والفحيح والإدعاء الفارغ؟

– اجل، لقد رأيت الطاؤوس بعينه!

عند مبارحتهم المعسكر إلتقوا القائممقام والمعاون.. تعانقوا في شوق وإمارات والسرور بادية عليه... وعادوا وإذا بالمئات من الاطفال والنساء والرجال خرجوا الى الشارع يهتفون ويزغردون وينثرون الأوراد على رؤوسهم والملبس في طريقهم، الكل فرح، والبعض يبكي. سدوا الطريق في وجه السيارة، وشقوا الصفوف في عسر وما إن توقفت السيارة امام المطرانية حتى حُملوا حملاً، واشتد الزحام عليهم من معانق ومصافح وهاتف ومهلل مزغرد، يا مرحباً.. قدمتم اهلاً.. أوحشمونا. آه اين كنتم.. الحمد الله على السلامة. كان الفرح يطفح وموجة السرور طغت من غير تكلف او تصنع، ذلك لأن المشاعر اختلجت دون اي سابق انذار او تحضير لذا لم يشعر المطران والخوري بأي نفاق أو تودد زائف.

كما وطغى عليهما التأثر وخنقتهما دموع الفرح فمنعتهما من التعبير والشكر.. وازدحم القوم وغصت المطرانية على رحبها بالمهنئين وتصبب العرق من شدة الحر، وعبثا حاولوا إطفاء الاوار بالماء والمراوح.. يظهر انهما كانا قد تركا فراغا في المكان والقلوب.. كان ابناء الجماعة في حزن أليم ولقد صلوا

من اجل رجوعهم بحرارة وبعضهم صام ونذر النذور، وكثيرون بكوا إذ كانوا يسمعون عنهما شتى الدعايات والانباء السيئة، فبلغهم مرة انهما قُسيتلا رمياً بالرصاص وتارة انهما أُغرقا في الخابور وطوراً نُكِّل بهما وعُذبا وحُرما الطعام واُسيئت معاملتهما ولكن شيئاً من هذا لم يكن لا بل البعض قال: «إنهما في أتم الصحة لفحتهما الشمس قليلاً!».

شكر وإمتنان

في زيارتي الأخيرة للأخ الأستاذ سامي عبدالرحمن نائب رئيس وزراء حكومة إقليم كُردستان، تفضّل بعد قراءة هذه الرواية، بمبادرة طيبة بتعضيدها وفاءً منه وتثميناً للعمل المشترك أيام ناوپردان، وتشجيعاً لأدب الثورة الكُردية. فألف شكر.

كما لا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أشكر أيضاً السادة التالية أسماؤهم على إسدائهم الملاحظات الأخوية لي في إنجاز روايتي هذه:

الأستاذ يوسف ناظر، عميد أدباء المهجر الأمريكي- ويست بلومفيلد هيلز، ميشيگان.

الأب الفاضل عمانوئيل ريّس- فارمنگتون هيلز، ميشيگان.

الأديب الشاعر زعيم الطائي- ديترويت، ميشيگان.

الأديب يوسف نعمان عربو- فارمنگتون هيلز، ميشيگان.

الأديب يوسف شكوانا- توليدو، أوهايو.

الأديب ريمون برنو- سانتياگو، كاليفورنيا.

الدكتور عبدالفتاح بوتاني، عميد كلية الآداب – جامعة دهوك.

الأستاذ محمد حسن هاجاني، نائب محافظ دهوك.

وإن أنسى فلا يمكنني أن أنسى شيخنا الأستاذ جرجيس فتح الله على توجيهاته القيّمة. بارك الله فيهم جميعاً، وأمدَّ في أعمارهم، لخدمة الوطن.

يونان هرمز

الفهرس

مقدمة المؤلف 5
قبل أيلول وبعده 9
الوفادة 23
المهمة الصعبة 40
نحو معاقل صادقي برو 58
معركة خيزاڤاك 80
الى أســعد خۆشەڤي 100
عـذاب الطريق 113
الراحة في چەلكي 124
هل من نهاية يارب؟ 138
قرار البارزاني 150
شكر وإمتنان 166